

اخناتون

رائد الثورة الثقافية



فؤاد محمد شبل

قــادة الفــكر

أفلاطون

فؤاد محمد شبل

إخناتون

رائد الثورة الثقافية

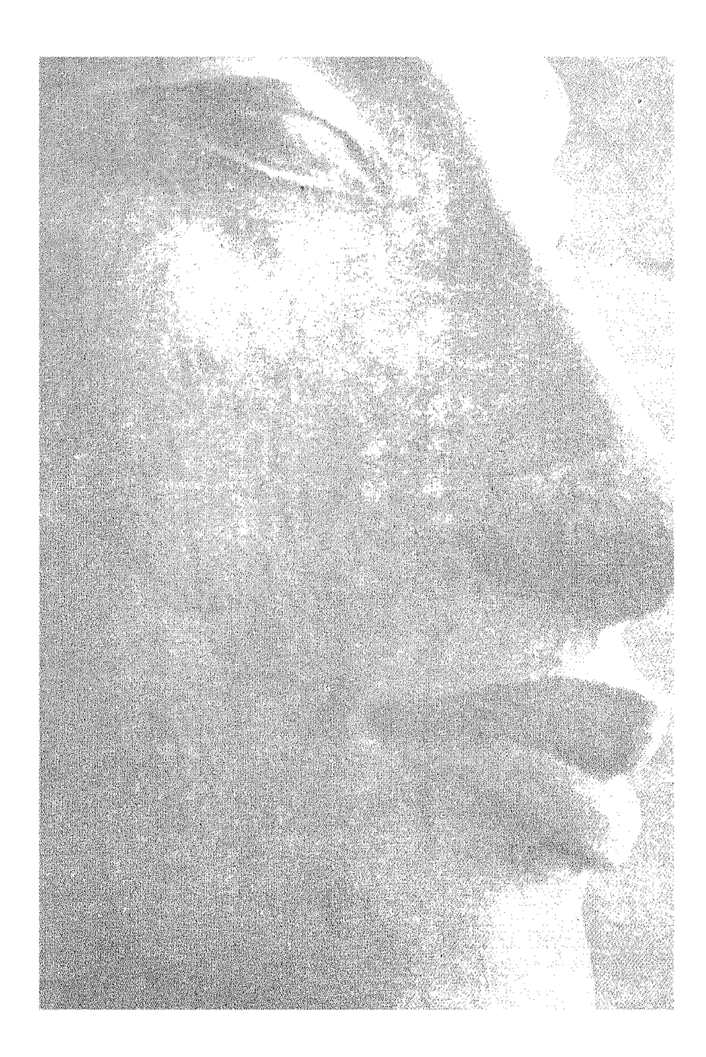


الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٤

خلقت الأرض وصورت الناس وأوجدت الحيوان ، كبيره وصغيره .
وأحدثت كل ما يحلق بجناحيه فى السماء .
ما أكثر مخلوقاتك وما أكثر ما خفى علينا منها .
إنك الإله الذى دان الجميع بحبك .
أنت الواحد الأحد ، ولا شريك لك .

أخناتون



تقـــديم

لم يحظ حاكم مصرى ـ بل ربمـا فى العـالم كله ـ بمثـل ما حظى به أخناتون الملك المصرى من عناية الباحثين • ولم يتطرف الكتاب فى الحكم على شخصية تاريخية ، مثلما تطرفوا فى الحكم على أخناتون ؛ وذلك على الرغم من ضآلة المصادر والمراجع التى خلفها عصره • فهناك من أغرق فى مديحه والاشادة به فوضعه فى صف أصحاب الرسالات الدينية العظمى ، بل ذهب البعض الى القول بأنه عبقرية دينية فذة لا نظير لها ؛ بينما يجرده البعض الآخر ـ وهم قلة ـ من كل امتياز وينفى عن دعوته كل معنى أو مغزى كريم ، بل ويلصق به شتى التهم النكراء •

ولكن ؛ ما انفكت الكتب تؤلف عن أخناتون ، والقصص تحكى سـيرته وتوضح دعوته ، والأفلام تصـور حياته وتعرض مثالياته • وبعبارة شـاملة ؛ فالحديث عن أخنـاتون لا ينفد منذ كشف آثار تل العمارنة بمحافظة أسيوط فى أواخر القرن التاسع عشر •

ففى عام ١٣٧٥ ق • م توفى آمنحتب الثالث الذى بلغت مصر

فى عصره أزهى عصورها الحضارية وأبهاها ؛ وخلفه ابنه آمنحوتب الرابع (أخناتون) • فكان توليه الملك ايذانا باستفحال الصراع بين البيت المالك وكهنة طيبة : صراع بدأ منذ عهد جده تحتمس الرابع ، واشتد أواره فى عهد أبيه وسلفه آمنحتب الثالث • اذ كان نفوذ كهنة آمون قد تعاظم على حساب سلطان العرش • فآلى البيت المالك على نفسه احياء عبادة الشمس راجيا اضعاف سلطان كهنة آمون •

ولم يكن أخناتون مسيرا فى اتجاهه الدينى بالعوامل الذاتية ـ مثلما فعل أبوه وجده ـ فلقد رنا الى أبعد من ذلك كثيرا • اذ هفت نفسه الى الروحانية المجردة عن الأغراض الدنيوية • وتبلورت عقيدته فى عبادة القوة التى تعتبر الشمس أعظم مظاهرها على الأرض • واتخذ من اسم « آتون » علماً على تلك القوة ؛ وآتون اسم قديم للشمس المادية • ورمز أخناتون الى هذه القوة بقرص الشمس ينبثق منه شعاع ينتهى بأيد بشرية تحمل ـ فى بعض الأحيان ـ علامة الحياة المصرية القديمة • فهو قد استعمل كلمة « آتون » وتدل على كائن مادى ، للتعبير عن معنى تجريدى بحت •

ولم يعلن أخناتون عقيدته الدينية الا فى السنة الرابعة من حكمه • وعندئذ غير اسمه من آمنحوتب (آمون راضى) الى أخناتون (ليسعد آتون) • ثم شن حملات صادقة على آمون ، فأمر بمحو اسمه من جميع السجلات والمعابد •

والعالمية هي الدعامة الأساســـية لعقيدة « آتون » • وهـذا ما يوضحه نشيد أخناتون بجلاء :

فى بلاد سوريا وأرض مصر ، تضع كل شىء فى مكانه
انك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
وتزود كل كائن بطعامه ، وتقدر له أجله
وبفضلك ، يختلف الناس فى لغاتهم وتفترق طبائعهم ويتباين لون جلودهم
فأنت الذى ميزت الأمم الأجنبية بعضها عن بعض وأنت الذى تهبها الحياة •

وفي الحق ؛ لم تعرف الحضارة البشرية هذه النزعة الروحيه العالمية قبل أخناتون : فانه أول أبناء الجنس البشرى ادراكا لوحدانية الله جل شأنه وشموليته • ويزداد عجب المرء اذا علم أن هذا الفرد هو ملك أقدم أمة ودولة متحضرة ، وحاكم أول امبراطورية عالمية عرفها التاريخ شملت نصف العالم المتمدين القديم •

فأخنـــاتون لم يكن فردا عاديا دفعته أحاسيسه النبيلة لانقاذ مجتمعه من أوزاره وتخليص مواطنيـه من الجهالة التي يكابدونها ، بل كان ملكا آثر التضحية بملذات الحياة وأبهة الملك في سبيل مبدا اعتقد فيه خـلاص الانســانية من الشرك وما يحوطـه من تحلل خلقي •

وأخنـاتون هو الذى قاد أول ثورة فى التـاريخ شملت كل

جانب من جوانب الثقافة والحيـاة الروحيـة • فكان أن جلب على رأســه عداء الناس وكراهيتهم ، ولقبه أعداؤه بالمجـرم وعملوا على طمس ذكراه وازالة اســـمه من جميـع الآثار المصرية • وامحت بالفعل ذكراه الى أن كشف الباحثون فى أواخر القرن التاسع عشر سجلات مدينته ومحفوظاتها ، فكان أن انبعثت ذكراه وأصبح اسمه يدوى فى أرجـاء الأرض ويثير عواطف القـراء ويستثير اعجـاب الباحثين •

ولقد سعى أخنـاتون الى أن يحل محل الحشد الضـخم من الآلهة التى يتزعمها آمـون / رع ، اله فـرد أحـد حق : ليس له صـــنم ، بل هو أثيرى الهيئة تتبدى عظمته للنـــاظرين فى قرص الشمس « آتون » •

ولم يكن أخناتون مسـيراً فى مسـعاه بدوافع سياسية ؛ مثل التى دفعت بطليموس سوتير الى توليف مزيج من العبادات لتوحيد العالم الهلينى روحـيا ، وحفزت الســـلطان أكبر الى توليف ديانة رجا من ورائها القضاء على انقسامات الهند الدينية التى تعوق تقدمها وتثير الشحناء والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد • وما هدف أخناتون الى تمجيد ذاته ، بل لقد ضـحى فى سـبيل دوافعه الروحية البحتة بامبراطورية عظيمة الأرجاء شيدها أجداده ، ولم يأبه للانقسام الذى هد كيـان مصر الاجتماعى • فلقد سيطرت على ذهنه فكرة واحدة مدارها أن الاله الحق قد اختاره للتبشير بواحدانيته •

ويلاحظ الباحث من استقراء نشيد أخناتون شدة افتتانه بالطبيعة ، فانه هو القائل :

وترتع كل الحيوانات فى مراعيها ، وتزدهر الأشجار والنباتات
والطيور التى تطير من أعشاشها ، تمد أجنحتها لتمدح قوتك
وتقف الحيوانات على أرجلها ، وكل ما يطير أو يحط
انهم يعيشون ، لأنك أشرقت من أجلهم
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ، لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط

كذلك ؛ يتبدى ادراك أخناتون لوجود الله فى الطبيعة وايمانه بتجليه تعالى فى جميع مظاهر الحياة المرئية :

ايها الخالق لبذرة الحياة فى النساء ، أنت تجعل من البذرة السائلة انسانا
تعنى بالطفل فى بطن أمه ورحمها ، وتهدئه بما يوقف بكاءه
أنت الذى تهب النفس ليحفظ حياة كل من تخلقه
فان صرخ الكتكوت داخل البيضة ، تمده بالنفس ليعيش
فاذا تم خلقه داخل البيضة توحى له بكسرها ، فيخرج ماشيا يوصوص

ولقد لاحظ بعض الباحثين المشابهة القوية بين بعض أبيات نشيد أخناتون وطائفة من فقرات مزمور داوود رقم ١٠٤ ، وهى مشابهة تكاد أن تكون تامة ، مما يقطع بتأثير عقيدة أخناتون على التفكير اليهودى فى بعض مراحله • لكن سيجموند فرويد العلامة

السيكلوجى اليهودى الأشهر يقطع فى كتابه « موسى والواحدانية » بتأثير عقيدة آتون على أسس اليهودية ذاتهـا • وهذا ما أفـردنا له فصلا خاصا فى دراستنا هذه •

ومهما يكن من أمـر الاختـلاف فى تقييم منجـزات أخناتون الروحية والفكرية ؛ تتفق الآراء على نبل مقاصده وسلامة نهجه • ولا شـبهة فى أن دعوته هى أول دعوة لتحرير العقل من جهـالة الشرك وفك اسار الضمير البشرى من سلطان طبقة من رجال الدين الفاسـدين الوصوليين • ويعتبر منهاجه أولى حلقـات سلسلة تطور العقائد الدينية الذى انتهى بظهور الأديان السماوية ، ثم توج برسالة الاسلام مصداقا لقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » •

نسأل الله جل شانه الهداية والرشاد •

٨ من سبتمبر سنة ١٩٧٤ •

فؤاد محمد شبل

• الفصل الأول

التطور الفكري للمجتمع المصري

١ ـ بزوغ القيم الخلقية

● أقامت الطبيعة من مصر مختبرا اجتماعيا فذا لا نظير له فى العالم بأسره . اذ تحيط بمصر الصحراء شرقا وغربا وجنوبا ، ويحدها البحر شمالا . فأصبح بلوغها عسيرا على الهجرات البشرية الا فى أعداد قليلة للغاية لا تؤثر بأية حال من الأحوال تأثيرا ذا شأن فى تركيب السكان الفوزيقى أو فى خصائصهم الفكرية المميزة .

أعنى أن البيئة المصرية المتفردة الى أقصى حدود التفرد هى التى صاغت التفكير الاجتماعى المصرى وعينت مساره . وان عزلة مصر الجغرافية قد أعانتها على تطوير نظمها السياسية والاجتماعية ؛ اذ حصنتها من الكوارث الطبيعية التى حطت على أوروبا وآسيا الغربية فى ابان العصر الجليدى ، وبمأمن من موجات الهجرات البشرية التى خلفت بصماتها فى جميع بلاد آسيا الغربية حتى الآن . هذا بينما كان على الأعداد الضئيلة التى تمكنت من دخول مصر أن تندمج فى السكان الأصلاء ، بما يفترض من خضوعها لأحكام البيئة المصرية ؛ فيتحول المهاجرون ـ أو الغزاة ـ الى مصريين على طول

المدى ، أو أن ينعزلوا عن بيئة البلاد فينتهى الحال بأن تلفظهم مصر ؛ طال الزمن أو قصر •

ومنذ أكثر من سبعة آلاف سنة بزغت بمصر أول دولة متحضرة ، وتكونت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة أول حكومة تحكم مصر حكما مركزيا • وكانت أوروبا ومعظم آسيا الغربية تسكنها وقتذاك جماعات متفرقة من صيادى العصر الحجرى • وبالتالى ؛ فان هذا السبق الحضارى مع توافر الأمن طوال عدة آلاف من السنين ـ فى ظل دولة مركزية ـ يمثل بداية مراحل تطور الانسانية الاجتماعى ، كما أنه أول فصول صراع الانسان مع الطبيعة ومع ذاته •

فالمصريون القدماء أول من حرر الصفحات الأولى فى سجل الحضارة • وكانت تلك الصفحات أساس الارتقاء البشرى : المادى والخلقى حتى اليوم •

والعقيدة الدينية هى بلا مراء مصدر جميع نشاط الانسان القديم ولاسيما بالنسبة للسنن الخلقية • ولقد كان الدين محور التطور الاجتماعى والخلقى فى مصر بالذات ؛ اذ كان الانسان المصرى أول من آمن بوجود قوة خفية سامية ، وهذه الحقيقة النبيلة ألهمته اياها دورة الانبات : فالفيضان يفد الى بلده حاملا الماء فتخضر الأرض ثم ينحسر فى فصل من السنة فتعود الأرض الى امحالها

السابق كالصحراء التى تحيط بالوادى من كل جانب ـ كما أمعن الفكر في تلك الأشجار والحيوانات والطيور التى يحفل بها الوادى : منها ما يألفه ، ومنها ما يؤذيه فيتجنبه • فكان أن استقر فى ذهنه وجود قوى فوق مستوى البشر هى التى تهيمن على العالم المادى الذى يعيش فى كنفه •

وأصبح لكل قرية أو ناحية كائن تقدسه يتجسد فيه المظهر المادى الغالب الذى ترتضيه الناحيـة أو تنشـد نفعه • لـكن من الواضح أن جميع هذه المظـاهر المتعددة للطبيعة المـادية قد تولدت عن ظاهرتين أساسيتين ما برحتا تؤثران أبلغ تأثير فى نفوس سكان مصر وأعنى بهما :

أولا : الشمس ـ ويمثلها اله الشمس رع •

ثانيا : النيل ـ ويتجلى فى رب الخضرة أوزير •

وقد أصبحا أعظم آلهة المصريين القدماء ؛ وظل التنافس بينهما قائما حتى عمت المسيحية مصر • وآمن المصريون القدماء بأن مصر حكمها اله الشمس متجسـدا فى انسـان ثم تلاه جملة من الأرباب وأشباههم ثم تتابع الفراعنة بعد ذلك • وبالتـالى ؛ ربط المصريون بين حكم الكون وحكم بلادهم ، وتم هذا بفضل اتحاد البلاد بعد عام ٤٠٠٠ قبل الميـلاد فى ظـل حكومة مركزية على رأسها ملك قوى

الشكيمة . وهكذا ؛ دخلت الدولة دنيا الأرباب ، فأسبغت السياسة الألوهية على نظام الحكم (١) .

واذا كانت العقيدة الدينية قد أثرت فى التطور الاجتماعى ، فان علاقات الحياة الاجتماعية قد أثرت بدورها فى الدين . فالحياة العائلية قد نشأت بمصر بفضل ما شاهده المصرى القديم من ترابط وثيق بين النيل (الأب) وأرض مصر (الأم) والنباتات (الأبناء) . والى هذه الحياة العائلية يرجع انبعاث عواطف الود ومشاعر الرحمة والحنان . وانبنى على هذا كله تولد الاحساس بالجمال والقبح ، وبالصواب والخطأ .. أعنى ؛ برزت فكرة الضمير لأول مرة فى تاريخ الانسانية الاجتماعى والخلقى (٢) . ومنذ خمسة آلاف سنة على الأقل عرف أجدادنا الأمجاد نظاما خلقيا تحكمه كلمة القسط ــ أو الحقيقة أو العدالة أو القصاص ــ التى يعبر عنها بلفظ « ماعت » المصرى القديم الذى أصبح دعامة حكم مصر وعماده ، والمسوغ لقيام الحكومة وولاء المحكومين .

واذ اضطربت شئون مصر طوال فترة الأسرات من السابعة حتى قيام الدولة الوسطى ، فقد تعالت صيحات المصلحين قبل عام

---

(١) ناقشنا تفصيليا موضوع الفكر السياسى بمصر القديمة فى الفصل الأول من الجزء الأول من دراستنا « الفكر السياسى » .

(٢) عرضنا لهذه الفكرة تفصيليا فى مؤلفنا «دور مصر فى تكوين الحضارة» (المكتبة الثقافية ــ ١٧٠) .

٢٠٠٠ قبل الميلاد بضرورة التزام الحكام العدالة الاجتماعية • ويكفل هذا أن تتولى عرش مصر ملكية تتصف بالاحسان والرقة ودماثة الخلق والرأفة وتعمل لخير الرعية وتكون لها ـ بالجملة ـ بمثابة الأب لأبنائه ؛ أعنى أن يحمل الملك صفات النيل النبيل الذى ما انفك المصريون يعتبرونه والدهم الأعظم • ولا يخفى أن توزيع مياه النيل هو الذى ألهم المصريين فكرة أن العدالة الاجتماعية هى أقدس شيء فى الوجود ، ويجب أن تكون قطب رحى سياسة الحكم •

فظاهر أن فكرة الحاكم العادل قد استمدت جذورها المثالية من واقع مادى ، وأضفى أجدادنا عليه قدسية بتقريرهم أن هذه هى ارادة الاله يوحيها الى الناس • أقصد ؛ تحول المفهوم المادى الى معنى تجريدى غدا علماً على الحكم المثالى الذى يبتغيه المصريون ويتوقون لاقراره • ويعتبر هذا تطوراً على أعظم جانب من الخطورة فى الفكر الاجتماعى فى العالم بأسره : فالاله الذى يحكم دنيا الناس فى صورة بشرية ، قد تحول الى ملك عادل يلتزم بحكم البلاد وفق قواعد الحق والقسط ، على غرار حكم اله الكون ، على أساس الحق والمحبة • فان ثمة تشريعا يسير عليه الاله مفاده مجازاة المحسن ومعاقبة المسيء ، ويتم ذلك بمحاكمة الميت بعد موته أمام قضاة عدول يمثلون أقاليم مصر المتحدة ويرأسهم أوزير (رب النيل وابن رع اله الشمس) •

وتطورت المحاكمة فى ابان القرن السادس عشر قبل الميلاد •

اذ لم تعد تقتصر على استقصاء خطايا الفرد بالتفصيل ، بل غدت محكا لصفاته الخلقية واختبارا لأفعاله • ويتضمن هذا تسامى الضمير الانسانى الذى يوجه أفعال الانسان نحو الخير ـ سواء لذاته ، أو للمجتمع •

بيد أنه عوق هذا التقدم الخلقى تدخل الكهنة طلبا للمنفعة المادية • فلقد أفتوا بأن الاستعانة بكتاب الموتى يهىء للفرد فى العالم الآخر عفو الاله وغفرانه فيدخل جنة طاعته ، مهما يكن من أمر أفعاله الشريرة خلال دنياه • واستشرى فساد الكهنة ، فتحلل التفكير الدينى بالتالى بفضل تدفق هبات الملوك على المعابد وبخاصة معابد الاله آمون كبير آلهة الامبراطورية •

٢ ـ تأثير الدين الاجتماعى

● اذا كانت دولة آتيكا الصغيرة قد وجدت فى الجمال تعبيرا عن مفهومها الحضارى ؛ فلقد عبر حكام مصر عن عظمة دولتهم الواسعة الأرجاء الضخمة السكان وأظهروا أمجادها الحضارية فى تشييد العمارات الضخمة المهيبة التى اتجهت أساسا لخدمة الدين ، مما ينبى عن التأثير العميق للدولة والحكومة على الدين •

وبالتالى ؛ فان الدولة فى مصر هى التى كانت ترعى رسميا تنظيم الشئون الدينية ، ولا يزال هذا دأبها حتى الآن • وتلك

لعمرى نتيجة لازمة لمركزية الحكم التى أوحتها ـ بدورها ـ البيئة المصرية • لكن يلاحظ أن العقيدة الدينية المصرية كانت تستجيب ـ من ناحيتها ـ ببطء للتأثيرات الاجتماعية التى يولدها التطور المادى والحضارى • أقصد أنه بينما كانت الدولة والشعب تستجيب لمطالب الكهنوت وتسخو بالعون على المعابد تحت ضغط تغلغل الروحانية فى النفس المصرية ، صدفت العقيدة الدينية بفعل الكهنوت عن التطور مع الزمن ، بل لقد أصاب عقليتها التحجر واستولى عليها الجمود • فلا بدع أن تؤدى الحضارة ثمن هذا الجمود تخلفا وانهيارا •

وليس ثمة شعب فى العالم ـ قديما وحديثا ـ يبدى هذا الاهتمام الفائق بفكرة الحياة فى عالم الآخرة : اما نعيم مقيم أو جحيم دائم • وهذه فكرة أوحتها اليه بيئته الطبيعية : خضرة الوادى وجدب الصحراء ، الفيضان والغيضان ، شروق الشمس وغروبها ؛ وثبت هذه الفكرة فى ذهنه ملاءمة الجو لحفظ جسد الميت من التحلل أطول مدة ممكنة مما لا نظير له فى العالم • ويعتبر الهرم قمة التفكير المصرى لصون الجسد ، وما الهرم ـ فى جوهره ـ الا رمز للشمس ، فانه يعلو دنيا الفناء ويطاول الأرض ليحى الشمس وهى التى أنجبت الحاكم الأعلى • وتطلبت تأدية الفروض الدينية فى المعابد الملحقة بالأهرامات تعيين حشود من الكهنة وأتباعهم فكانوا فى زيادة مستمرة ، وتتضاعف نفقاتهم بمرور الأيام •

وجدير بالذكر أن المعتقدات المحلية أخذت فى ظل الوحدة

يتخلل بعضها بعضا ويندمج أحدها فى الآخر • وتبدى هذا بالذات فى حالة رب الشمس رع فى أون (عين شمس) والرب الصانع « بتاح » فى منف • بل حدثت عملية التحام بين « أوزير » رب الخضرة والنيل و « رع » رب الشمس •

ولقد حفظت لنا الأيام ترنيمة فى مديح « رع » اله الشمس وردت بمتون الأهرام ؛ ويتطابق فيها الملك مع رب الشمس • وتذكر أبيات الترنيمة مصر بالنعم أسبغها الاله عليها تحت رعايته وفى ظل سيادته ، الأمر الذى يوجب على مصر شكر الاله على أنعمه بتقديم ثروتها وحصيلة كد أبنائها اليه • واذا كان الفرعون يتحد مع رب الشمس ، أصبح له نفس حقوق هذا الرب على مصر ، بل ان ما يبذله المصريون للفرعون من بذل وعطاء يستوى مع ما يبذل لرب الشمس سواء بسواء •

وعمد الكهنة فى بعض الأحيان الى اعلاء سلطان الملك على سلطان رب الشمس « رع » مدفوعين بلا ريب بالأمل فى مزيد من عطايا الملك وتمكينا لنفوذهم فى المجتمع المصرى •

ولقد أشرنا فى مستهل هذه الدراسة الى انبعاث تيار فكرى آخر فى محيط البيئة المصرية ونعنى به « الخضرة » ومبعثها فيضان النيل • فثمة حقيقة لا تمارى وهى أن مصر أول بلد فى العالم انتقل من ثقافة الصيد والرعى الى ثقافة الزراعة ، وهو أول من كشف

القمح وصنع الخبز عماد الغذاء البشرى • وهذا التحول المنير من الصيد والرعى قد اقترن بتحول اجتماعى خطير للغاية : اذ اقتضت الزراعة الاستقرار ، وتطلب الاستقرار تأليف الحكومة والدولة لاقرار السلام والعدالة التى لابد من توافرهما لاستثمار الأرض الزراعية لفائدة الانسان •

وعاين الفلاح الأول بداية ظهور الزرع ثم حصده وازدهار الأشجار ثم سقوط أوراقها بعد اصفرارها ، ثم ظهور الزرع مرة أخرى • فكان أن طفرت الى ذهنه فكرة وجود قوة خفية تعيش ثم تموت ثم تبعث من جديد •• وهكذا • وانتشرت الفكرة المصرية بانتشار الزراعة ؛ فاذا كان قد أطلق على هذه القوة «أو رب الخضرة» أوزير فى مصر ، فقد أطلق عليه فلاحو آسيا الغربية «تموز Tammuz » أو « آدونيس Adonis » وما الى ذلك من الأسماء التى ترتبط بدورة الانبات التى تبدأ فى الربيع ثم تستكمل فى الصيف لتضمحل فى الخريف وتموت فى الشتاء • وهذه هى نفس دورة حياة الانسان الذى يموت ليبعث من جديد فى صورة ولده •

وبالأحرى ؛ فان عقيدة أوزير وأشباهها فى كل زمان ومكان هى صدى لانتقال الانسان من مرحلة الصيد والرعى الى مرحله الزراعة • واندمجت هذه العقيدة فى مصر فى كافة المعتقدات التى تنادى بالجزاء والعقاب فى عالم آخر • وهذه العقيدة هى قاعدة

السنن الخلقية المصرية التى غدت بدورها ركيزة السنن الخلقية فى العالم المتحضر •

وأوزير فى المعتقدات المصرية هو « الخضرة » • وورد فى (كتاب الموتى) أن أوزير هو القمح كما أنه الشعير • وتوحد المصادر المصرية الأولى بين أوزير والفيضان • ذلك لأن الفيضان عماد الخضرة ، وتستحيل بدونه زراعة القمح والشعير وهما عماد غذاء الانسان • فلابد أنه وقر فى الذهن المصرى أن الاله هو مبدأ الحياة بكافة مظاهرها ومهما تعددت أشكالها ، ولن ينقطع تدفق أى مظهر للحياة بموته الظاهرى ، فانه يبعث من جديد • ومصداقا لهذا الرأى ، أنجب أوزير ولده حور من ايزيس بالروح •

ذلك لأن الروح خالدة لا يجوز عليها الفناء قط ، وتظل باقية حتى يؤذن لها بالعودة الى عالم المدركات الحسية ؟ وهذا ما طفق المصرى يشاهده فى النباتات ويعاينه سنويا فى فيضان مياه النيل ثم انحساره وغيضانه ، ثم فيضانه من جديد • فالنيل ــ والحالة هذه ــ هو الرمز الواقعى الماثل أمام أعين المصريين للخصب والنماء ، وما أوزير الا تجسيد لهذه الظاهرة الفذة فى الطبيعة المصرية •

ثم حول الفكر المصرى عقيدة أوزير « أى ظاهرة الخضرة » الى أسطورة تقول بأن أوزير ابن الاله رع رب الشمس وأنه خلفه فى حكم مصر وأنه اتخذ أخته ايزيس زوجة له ، وقد جاهدت

لتصد أذى أخيــه الشرير « ست » عنه ، وعاونت ولدهما بالروح « حور » ليخلفه على عرش مصر •

٣ ـ تعيين أنماط السلوك الاجتماعى

● فرض مجتمع النهر الذى أقامه النيل على المصريين أسلوبا خاصا للحياة يتبلور فى تعاون أفراد المجتمع • وتمثل هذا التعاون فى بداية الأمر فى القرية ، ثم أخذ يتسع شيئا فشيئا كلما استبانت ضرورة العمل على امتداد نطاق التعاون لاجتناء مزيد من الفائدة من ظاهرة الفيضــان وتحاشى أضراره • وانتهى الحل بتــكوين مصر المتحدة •

واقتضى التعاون بين أفراد المجتمع الاقبال على المشاركة فى الأعمال العامة ومســاعدة الناس بعضــهم بعضا • فكان أن برز الى الوجود اصطلاح « الفعل الحميد » و « الفعل السىء » و « العمل الصالح » نقيضا « للعمل الطالح » و « الأمر المحبوب » معارضــا « للأمر البغيض » • وبفضل ذلك استقامت أنماط السوك الاجتماعى الذى يتعين على الفرد انتهاجه لينال تقدير المجتمع وثقته ويتجنب كراهيته ويتحاشى حقده • فيعيش المرء في أمن وسلام •

ومفاد الســـلوك هو تعبير الفــرد عمليــا عن علاقاته بالقوى الاقتصادية والاجتماعية التى تجابهه فى معترك الحياة وحيث لا مناص من أن يأخــذ في اعتبــاره تقاليد المجتمع وعاداته الموزونة • وهذه

العوامل هى التى تعين وجهة نظر الفـرد وتـكيف القرارات التى يتخذها • وقد حفظت لنـا سـجلات التاريخ المصرى قائمة بانماط السـلوك الاجتماعى الذى يتعين على الفـرد اتباعه ، ومنها يتبين أن مكانة الفرد فى المجتمع تسـتند على شفافيته الروحيـة وعلى حسن معاملته لأفـراد عائلتـه : والدا ، ووالدة ، وأخـوة وأخـوات • ومن المؤكد ، يتصدر حب العائلة قائمة الفضـائل التى يتعين على الفرد الايمان بها ، وهى فى الواقع قطب رحى جميع القيم المعنوية• ذلك لأن مسئولية السـلوك قد برزت فى محيط العائلة فى بداية الأمر ، ثم تجاوزها الى الجيرة ، ثم امتد الى الجماعة فالمجتمع ، واتسع أخيرا فشمل الانسانية •

ومصداقا لهذا الرأى : خلف الأقدمون سطورا يظهرون فيها للخلف شدة حرصهم على سلوك الطريق السليم : فهناك من يقسم أنه لم يرتكب عدوانا على أحد طوال حياته ، ويؤكد آخر أنه أعطى كل ذى حق حقه ، وينوه ثالث بأنه لم يكذب واعتصم بالعفـة ، وأبدى رابع أنه لم يغتصب حق أحد وأن ثروته قد وافته بالطرق المشروعة •

ومن خيرة أمثلة مناهج السـلوك التى خلفهـا لنا أجـدادنا الأقدمون تلك النصـائح التى وجههـا بتاح حوتب الوزير الأكبر للفـرعون « اسيسى » من الأسرة الخامسـة (حوالى ٢٧٠٠ قبـل الميلاد) الى ولده وهو يعظه • وينصب تلك النصـائح على بيـان

السلوك الأمثل للتعامل مع الناس ومن ضمنها كيفية التصرف فى حضرة الأرفع منزلة عند المثول أمامه والتحدث معه وتناول الطعام • فانه القائل : « تناول ما يعطى لك ولا تنظر الى ما يتناوله المضيف ولا ترشقه بنظراتك • فان تكلم فحول وجهك الى أسفل ولاتنبس ببنت شفة الا أن وجه الحديث اليك ، واضحك عندما يضحك وأقلل من الحديث وأكثر من التفكير » • ثم ينصح ولده بالتواضع وأن يجهد لارضاء رؤسائه وزملائه ، ويتلطف مع معاونيه ليجذبهم الى حظيرته • ثم يبين له أحسن السبل لمعاملة أصدقائه ، ويدعوه لمحبة زوجه وتزويدها بالكساء والطيب • ويرشده الى الطريقه المثلى لتربية ولده بأن يقترن الحزم بالعطف وأن يبث فيهم الفضائل• وينادى بأن البخل أعدى أعداء الصلات العائلية • ويحضه على التزام العفة وتجنب الخيانة ، وأن يعنى ببحث مظالم الناس وأن يتخذ من العدالة هاديا ومرشدا فى جميع سنى حياته • ويتباهى الوزير بأنه عاش الى سن العاشرة بعد المائة وهو يحرص على سلوكه سبيل العدالة فى جميع أقواله وأفعاله ، ورفعه هذا الحرص الى أعلى مناصب الدولة •

ومهما يكن من الأمر : فلقد انبعث للمرة الأولى فى تاريخ البشر حشد من القيم تتجه لابراز الشخصية الانسانية • فالانسان يحاسب على أفعاله فى الدنيا فينال الجزاء الأوفى على العمل الصالح فى الدنيا والآخرة ، ويعاقب على ارتكاب الفعل الطالح فى العالم الآخر •

٤ ـ الجهاد لاقرار الحق والعدل

● يطالع الباحث فى الشئون المصرية اصطلاح « ماعت » ينبث فى العبارات الدينية والثقافية والسياسية• ويمثل هذا الاصطلاح طاقة الخير والمحبة والقسط والحق والعدل • ويعتبر ركيزة تأدية الانسان رسالته على الأرض فى اظهار عظمه الخالق وابداعه تعالى • وهذه الطاقة فى حرب أزلية ضد قوى التخريب والهمجية والفوضى • ويقابل لفظ « ماعت » فى الحضارة المصرية لفظ «تاو» فى الحضارة الصينية (١) ولفظ « لوجوس Logos فى الحضارة الهلينية •

ولقد فهم مفكرو مصر بعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد اصطلاح « ماعت » على هدى التجارب التى تجتازها بلادهم والمشكلات التى تجابهها والمحن التى تمر بها • اذ بات لهذا الاصطلاح معنى امتد من العلاقات الانسانية الخاصة الى الجوانب القومية ، فأصبح يعبر عن التشكيل القومى وعن نظام الأمة الوطنى وعن ترتيب الكون تحت سيطرة اله الشمس • أعنى ، لم يعد الاصطلاح يقتصر على معانى « العدالة والصدق والحق والقسط » وهى المعانى التى كانت تتداعى فى ذهن الفرد فى ابان عصر بناة الأهرام ، بل لقد غدا لها مدلول واقعى : اجتماعى وحكومى ، وتطورت الى نظام عالمى •

---

(١) شرحنا اصطلاح «تاو» بالتفصيل فى الباب الرابع من الجزء الأول من مؤلفنا «حكمة الصين» •

فمن ثم ؟ انبعث لأول مرة فى التاريخ حشد من القيم السامية عالمية الطابع ، تتجمع حول حاكم مؤله هو اله الشمس ، ونصب المثقفون المصريون « ماعت » ابنة له اعلاء لشأن العدالة واظهارا لعظم خطرها في المجتمع المصرى • وبفضل الايمان بدور « ماعت » تطورت حياة المصريين الفكرية ، فاندفعوا يبغون الاهتداء الى الوحدانية قبل أى شعب آخر فى الوجود • ولم يهتد العبرانيون الى هذه الحقيقة السامية الا بعد اقامتهم بين ظهرانى المصريين وخضوعهم لسلطانهم فى فلسطين وانطوائهم تحت لواء الثقافة المصرية • واننا لنجد في سفر ملاخى (الاصحاح الرابع آية ٢) الاشارة الصريحة الى اله الشمس المصرى الذى كان يرمز اليه بقرص مجنح « ولكم أيها المتقون باسمى تشرق شمس البر والشفا في أجنحتها » (البر والقسط والحق = ماعت) •

وما الفكرة المصرية عن النظام الخلقي والادارى ـ وهذا هو مدلول اصطلاح ماعت ـ الا حصيلة تطور اجتماعى وحكومى استمر بضع آلاف من السنين فى كنف حياة قومية منظمة تنظيما عاليا وفى ظل تكافل اجتماعى وطنى سبقت مصر بتحقيقه مجتمعات العالم الأخرى بآلاف السنين • وما اهتدى أنبياء العبرانيين الى هذه السنن الخلقية الا بعد الأسر البابلى ، ولقد سبقت مصر بابل في هذا المجال بألف سنة على الأقل •

ويتفرع عن هذا الرأى أن الحكم العادل هو مثل المصرى

الأعلى ؟ ففى ظله ينمى ملكاته المادية والمعنوية • فالمصرى لا يمكن أن يعيش الا فى ظل حكومة يقدسها ويرتضى التنازل عن جانب كبير من حريتـه الشخصـية ، مادامت اقامتها تحقق ركن العدالة الركين •

٥ ـ طابع الحكم المميز

● ظلت الملكية المصرية طوال العهد الفرعونى ـ ونظام الحكم بصفة عامة ـ المجرى الذى تتدفق منه قوى الطبيعة وقدراتها وتصب فى جهاز الدولة السياسى لتؤتى جهود الأمة ثمـارها • فالحاكم ـ مصداقا لهذا الرأى ـ صلة الوصل بين الناس والطبيعة • واذا كان الفرعون هو الاله « حور » أثناء حيـاته ـ وقد ورث حور عرش مصر عن أبيه أوزير الذى قتله أخوه ست حسدا وطمعا واغتصب العرش لكن الآلهة حكمت بأحقية حور فى العرش ـ فان الفرعون يتحول بعد موته الى أوزير ليخلفه ولده « حور » • ومفاد هذا الرأى أن الملك فى تجدد دائم ويرتبط بأصله •

هاهنا تطالعنا فكرة الفيضان • فانه يفد بعد التحاريق (أى الحياة بعد الموت الذى تتلوه الحياة •• وهكذا) • ويعترف الرأى كذلك بفكرة الانبـات • فان حبة القمح تنبت من البذرة ، ثم تؤكل الحبة ، ولكن تبذر البذرة لتدر محصولا جديدا يمكن الانسـان

من الحياة على الأرض لتأدية رسالته وفق مشيئة الله تعالى (١) •

وللملك المصرى ـ من الناحية النظرية ـ سلطة مطلقة على الأرض والناس • فالملكيات الخاصة عطاياه وألقاب الشرف والمناصب هباته يمنحها من يشـاء • لـكن لا يعنى هذا ـ من الناحية العملية ـ أن يستبد الملك برأيه ويتعنت فى حكمه ؟ ذلك لأنه خاضع لقدسية « ماعت » فلا يمـكن أن يمارس وظيفتـه كحاكم الا عن طـريق الامتثال لفرائضها ، ويضطلع الفـرعون باقرار حـكم « ماعت » • فظاهر أنه على الرغم من مركز الملك السامى ، يحمل على كتفيـه مسئولية جسيمة وهى العمل الدائب على ازدهار أحوال مصر بفضل سلوك الطريق الحق ، وهو نظام الحكم القويم • ويستتبع هـذه النظرة أنه اذا اختلت أمور البلاد ، فان مرجعه الانحراف عن النظام القويم ، أى مجافاة الحكم للعدالة •

ومن واجبات الملك الرئيسية :

أولا : يتقدم الصفوف فى المعارك ، ومن الملوك من استشهد فى ميدان القتال •

---

(١) قارن بهذا أقوال القديس بولس الواردة فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس (اصحاح ١٥ آيات ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ و ٣٨) • لكن يقول قائل كيف يقوم الأموات وبأى جسم يأتون • ياغبى . الذى تزرعه لايحيا ان لم يمت ... والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى ولكن الله يعطيها جسما كما أراد ولكل واحد من البذور جسمه •

ثانيا : الملك هو الموحي بالأعمال العامة المفيدة مثل تعبيد الطرق وحفر الآبار وشق الترع واستغلال المناجم والمحاجر ورعاية التجارة والصناعة وتشييد المعابد وترميمها • وكانت المعابد مراكز للعبادة والثقافة معا •

ثالثا : قدوة رعاياه فى تأدية الطقوس الدينية والتمسك بأهداب الفضيلة •

ومؤكدا ؛ آمن المصريون ايمانا لا يرقى اليه الشك بأن الحاكم الصالح القدير يسبغ قدراته على شعبه • وبفضل قيادته الحكيمة ، يسعد الشعب وتتبوأ بلاده أعظم منزلة ، ويصان استقلالها وكرامتها •

فالحكومة ــ كما مر بنا ــ ضرورة فرضتها ظروف الحياة فى مصر • وهى ظاهرة سياسية واجتماعية تميزت بها الأمة المصرية منذ بداية عصورها التاريخية • وهذه الظروف هى التى جعلت ارادة الحاكم الأعلى لا معقب لها ؛ وذلك حرصا على استتباب النظام ليتيسر التعاون بين السكان وتوجيه طاقاتهم للافادة من البيئة النيلية • فالمصرى ــ والحالة هذه ــ لا يمكن أن يعيش الا فى ظل حكومة مستقرة تكفل الأمن الداخلى والخارجى وتصون الوحدة بين أجزاء البلاد • ولولا الأمن والوحدة لحاق بالبلاد الدمار • وحرص المصرى على تحقيق الأمن والوحدة قد دفعه ــ كما قررنا من قبل ــ أن يقدس حاكمه فيجعل منه الآها يتجلى للناس فى هيئة بشرية ،

بل انه اله الشمس ذاته يتبدى فى دنيا الناس ويحكم مصر لخير أهلها . ومن ثم تصبح مخالفته أبشع الآثار وأشنع الجرائم . وهاهنا يتيسر له حكم البلاد بما ترتضيه ظروفها الجغرافية الآنفة الذكر .

أعنى ؛ يمكننا أن نطلق على الحكومة المصرية القديمة حكومة الملك الاله عن طريق الصفوة المثقفة التى يطلق عليها فى عصرنا الحاضر طبقة التكنوقراطيين . ولذلك ؛ انقسم المجتمع المصرى الى أقلية من التكنوقراطيين بيدهم زمام الحكم ، وأغلبية ساحقة من المنتجين . وثمة ملاحظة نسوقها تتصل بدور الصفوة المثقفة فى توجيه شئون الحكم ومدارها أن حريتها فى هذا الشأن لم تكن مطلقة . اذ ما كان يسمح للمثقفين أثناء ممارستهم وظائفهم العامة أن ينحرفوا عن القواعد المقررة لسياسة الحكم ويهيمن عليها مبدأ العدالة المقدسة .

وكان التنظيم السياسى المصرى القديم يسير وفق البناء الهرمى . ففى القاعدة نجد الكتبة فى فروع الحكومة المختلفة فى الادارة والجيش والمعابد والقضاء ... الخ . ثم يأتى رؤساؤهم ثم المشرفون ثم رؤساء الأقسام المتعددة ... وينتهى الهرم الاجتماعى الى الوزير ثم الفرعون وهو قمة هذا الهرم .

ومن ثم ؛ فان للفكر السياسى المصرى خصائص ثلاث أساسية:

الأولى : الوحدة والعدالة أهم من الحرية . وقد يضحى بالحرية فى سبيل كفالة هذين المبدأين .

الثانية : لا نعثر بمصر على نظام قبلي أو تنظيم عشائرى مثله نجده فى البلاد التى تمتهن الرعى أساسا كالبدو وسكان الهضاب والجبال • أى مجتمع المطر اصطلاحا • أعنى ، لا تتمثل دعامة المجتمع المصرى فى القرابة والنسب ، لكن يستند نظام المجتمع المصرى على المرتبة الاجتماعية ، وتعينها الطبقة والحرفة • وكان الفرد يرث أساسا حرفة أبيه ويتبوأ فى الغالب مركز والده الاجتماعى ، لكن كان فى وسع أى انسان مجتهد ويواتيه الحظ أن يصل الى أسمى المناصب •

الثالثة : كانت الأرض هى التقسيم الادارى للدولة المصرية • ولا يرجع التقسيم الى اختلاف العناصر وتباين الأجناس والأديان ، كما هو الحال فى معظم بلاد العالم القديم بل وكثير من دول العالم الحديث • ويرجع ذلك لامتزاج المصريين فى وحدة عنصرية متماسكة : تماسك قل أن نجد له نظيرا ، وتم ذلك بفضل العوامل الجغرافية •

وظاهرة تشبث المصريين بذاتيتهم هى التى تفسر عناد العقلية المصرية فى رفض أى منحى تفكيرى يفرض عليها قسرا • سواء أكان هذا المنحى التفكيرى فى صورة عقيدة دينية أو متجه فكرى اجتماعى أو اقتصادى أو سياسى • وسيتبين لنا ضغط هذا المتجه الفكرى فى صدوف المصريين جملة عن الاستجابة لتعاليم أخناتون •

• الفصل الثانى

السياق التاريخى لعصر العمارنة

١ ـ المظاهر العامة

● ثمة عوامل أساسية خمسة أضفت على مصر خلال فترة الألف الثانية قبل الميلاد نفوذا ضخما بين بقية بلاد العالم المتحضر القديم :

الأول : الموقع الجغرافى الفذ بين شمال أفريقيا وغرب آسيا وجنوب أوروبا • كما أن مصر المنفذ الى أفريقيا الاستوائية •

الثانى : سخاء الموارد المادية الزراعية وفى مقدمتها القمح وكانت أعظم منتجية وقتذاك ، والمعدنية وفى طليعتها الذهب وكانت أعظم منتجيه كذلك • بالاضافة الى الموارد الحيوانية والصناعية •

الثالث : ضخامة عدد السكان مع تمازجهم واندماجهم فى وحدة عنصرية مفردة واقبالهم العجيب على العمل الدائب •

الرابع : مركزية الحكم وقد تفردت به مصر فى وقت انقسم العالم المتحضر الى امارات متنابذة • وبينما كانت دولة المدينة لون

الحكم الشائع فى العالم المتحضر ، كانت بمصر حكومة تهيمن على دولة واسعة الأرجاء يخضع ملايين السكان لسلطانها ، ويتوحد الناس فى جميع مظاهر الحياة وفى الأهداف والآمال .

وامتاز ثراء مصر بالوفرة والثبات لاعتماده على مصدر ثابت من المياه والطمى وموافقة الجو للزراعة . وذلك عكس معظم البلاد المجاورة التى كانت تستند فى زراعتها على المطر وعلى نهر مثل الفرات والدجلة شيمته التقلب والغدر ، كما يتغير الجو من حر لافح فى الصيف الى برد قارص شتاء .

وترتب على سخاء النيل على الأرض بالمياه والطمى انبعاث صفوة من المفكرين تحرروا من العمل اليدوى بفضل وفرة المحاصيل ؛ فأصبحوا علماء العالم القديم وفنييه . فكان أن نشأت بمصر أول طبقة ، مثقفة واليها يرجع ابتكار نظام الرى الدقيق ونظام متقن للموازين والمكاييل واستخدام نظام عشرى ، وبفضل تقدم العلوم الرياضية أمكن بناء الأهرام والمعابد والمقابر . كما قدمت العبقرية المصرية منذ ستة آلاف سنة الكتابة للعالم ، فأصبحت أداة التثقيف وتبادل المعارف .

فليس بدعا أن تغدو مصر موضع حسد جيرانها البدو الفقراء فى الموارد المادية والمعدمين ثقافيا ، وصبت نفوسهم لاستيطانها أو استغلال سكانها سلما أو غزوا . أما المصرى فكان قرير العين بوطنه لا يبتغى عنه بديلا ويؤمن بأنه هو الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين فى حياة أخرى .

وفى ابان عصر الأسرة الثامنة عشرة أمكن فراعنتها الأوائل ـ بعد أن حرروا البلاد من طغيان الهكسوس ـ أن يمدوا النفوذ المصرى الى آسيا الغربية وشمال السودان • فاستعادوا هيبة الملك التى تصدعت بانتشار الاقطاع ـ وما عناه من تحطيم وحدة البلاد وهى أساس طاقاتها السياسية والاقتصادية وركيزة ثقافتها المميزة ـ واحتلال الهكسوس للدلتا والجزء الشمالى من الصعيد • وأسفرت حروب التحرير والتوسع الذى تلاءهن بلوغ مصر ذروة الرخاء الاقتصادى والازدهار الفنى وقمة النفوذ السياسى •

وأسبغ نفوذ مصر وتساميها الحضارى على حاكمها هيبة وجلالا فائقين فى جميع أنحاء آسيا الغربية • وكان فرعون يلقب بالاله الطيب الذى يحكم مصر لخير أهلها • وينظر اليه على أنه ابن رع اله الشمس الذى حكم المصريين وقتا ما فى هيئة بشرية بعد أن أبدعها وفق مشتهاه خير ابداع ثم ترك الحكم لأبنائه الفراعنة •

ولقد أخذت خارطة الشرق الأوسط تتعدل منذ أن تدفقت قوات الآريين عليه واحتلالها مصر ثم طردها منها ؛ فنشأت أمم جديدة • وما كان احتلال الهكسوس مصر الا جانبا من ذلك الاعصار البشرى الذى تمثل فى هجرات الشعوب الآرية والسامية على السواء ؛ الأمر الذى دفع حكام مصر لاقامة جيش دائم على أهبة الاستعداد لصد غزوات الطامعين فى خيراتها والحاقدين على سموها الحضارى •

ونجد فى قائمة الأمم الجديدة :

أولا : الحوريين ـ وكانوا يتكلمون لغة هندو أوربية ويعيشون أصلا حول بحيرة آريفان بأرمينيا بالقوقاز • ولقد شقوا طريقهم صوب الجنوب فأسسوا مملكة ميتانى Mitani الاقطاعية الواقعة بين نهرى دجلة الأعلى والفرات • وأخضعت لسلطانها العموريين فى سوريا الشمالية •

ثانيا : مملكة حاتى Hatti ـ وقد سيطر عليها الحيثيون• وهم كذلك من الأجناس الآرية ويتكلمون لغة تقارب اليونانية واللاتينية •

وشرعت هاتان القوتان الناشئتان تتحديان سلطان مصر فى غرب آسيا • وكانت سوريا وفلسطين تتألفان وقتذاك من امارات متنافرة ، لكنها تدين بالولاء للفرعون مادامت القوات المصرية قوية البأس شديدة الشكيمة • واتبع حكام تلك المقاطعات سياسة فرق تسد ، فكانوا أساتذة الكاتب السياسى « ماكيافيللى » Machiavelli فى مجال الحكم •

ولم تقتصر الأخطار التى جابهت الوجود المصرى فى سوريا وفلسطين على أطماع مملكتى ميتانى وحاتى ونزوات الأمراء المحليين ، بل كثيرا ما كابدت القوات المصرية المعسكرة هناك اغارات قبائل الشاسو Shasu وهم أقوام من البدو دأبوا على الاندفاع من الصحراء لمباغتة القوافل والمستوطنات غير المحمية • ولقد

تطلب تقلقل الأوضــاع فى تلك المنــاطق أن يشن تحتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق • م) أربع عشرة حملة ليدمر تحالفـا أقامتـه مجموعة من الأمــراء المتمردين على الســلطان المصرى ، ووفق الفرعون فى كسر شوكتهم وتنصيب أمراء موالين للحكم المصرى • وبفضل نشــاط تحتمس الثالث العظيم ، أمكن مصر أن تقر السلام فى آسيا الغربية وبخاصة وقد أمكنها احتواء مملكة ميتانى •

واذا كان فراعنة الأسرة الثامنــة عشرة قد نبعوا من طيبة ، فقد عزوا نجاحهم فى طرد الهكســوس وفى مد حــدود مصر الى رعاية آمون ربهــا المحــلى • فشرعوا يوســعون معــابده القديمة ويشيدون لعبادته أعظم العمائر التى ما برحت تذهل المشاهدين ، وأصدق مثــال يطالعنا مجموعة معابد الكرنك الهائلة ومعبد آمون الرائع • وطبيعى أن يتطلع كهنة آمون للسيطرة على مقادير الأمور مستترين وراء الأساطير التى لحقت بمعبودهم ؛ فانصرفت جهودهم لتوطيد سلطانهم وتكديس الثروات ، بل لقد جاهدوا لازاحة نفوذ الأرباب المحلية الأخرى عن طريق ادماجهــا فى آمون أو ابتلاعه لها • ويطالعنا من الأمثلة ادعاؤهم بأن آمون قد أصبح «آمون/رع» و « آمون / خنوم » و « مين / رع » بما يقتضيه هذا من تنحية كهنة تلك الأرباب عن مراكزها الســابقة فى أقاليمها بعدما أصبحت تلك الأرباب مجرد توابع لآمون رب طيبــة • وكلما علا شــأن آمون

ومدينتــه ، عانى الكهنة الآخــرون الفقر والمذلة وضعف شــأن مدنهم •

وفى عهد ثامن فراعنة الأسرة « تحتمس الرابع ـ ١٤١٤ ـ ١٤٠٥ ق • م » لاح للبيت المالك خطر استفحال نفوذ كهنة آمون • ولعل كهنة رع قد عاونوه فى ارتقاء العرش ، اذ لم يكن أكبر أبناء الملك • وهذا ما يتضح من اشــادته بمناقب « رع » اله الشمس ، كما زين له تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطــان بالملك وتحنوان عليه وتغدقان عليه البركات • وبهذا ، كان هذا الفرعون أول من اســتخدم لفظ آتون تعبيرا عن الشمس ، فكان ذلك ارهاصا باستخدام أخناتون الاسم تعبيرا عن منحاه التفكيرى ذى الطابع التجريدى •

لكن الصراع تفاقم بين كهنــة آمــون والبيت المالك فى عهد ولده وخليفته آمنحوتب الثالث •

٢ ـ عهد آمنحوتب الثالث

● قد يكون آمنحتب الثالث (تاسع فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ١٤٠٥ ـ ١٢٦٧ ق • م) أول حاكم مصرى أقبل اقبــالا يوصــم بالشراهة على الاستمتاع بمباهج الحياة الحسية • فلقد شرب كأس الملذات حتى الثمالة وحظى برفاهية لم يلحقه فى مضمارها لاحق •

وفى وســعنا تقدير هذه الرفاهيــة بنظــرة نلقيها على أثاث توت عنخ آمــون الجنائزى الذى حكم مصر تسع سنوات ، ويبعد عصره عن عصر آمنحوتب الثالث ببضع سنوات اذ توفى الفرعون الصغير عام ١٣٥٣ ق • م •

ومكن استتباب الأمن والسلام فى أنحاء الامبراطورية آمنحوتب الثالث من الانتهال من معين اللذات حتى تركته شيخا محطما فانيا ولما تصل سنه الى الخمسين • ولم تتحقق السكينة للبلاد بفضل غزواته الحربية كأجداده التحامســة ولكن عن طريق الديبلوماسية التى صاحبها انفاق مقادير ضخمة من الذهب لاقناع حكام الدول المجاورة للامبراطورية بالتزام الهدوء وايثار السلام •

ومهما يكن من أمرما يستقرؤه الباحثون من آثار هذا الملك من انكبابه الشديد على الملذات ، فلقد أسفر عصره عن سمات خاصة لاعهد لمصر بها من قبله ولا من بعده • ولا ترجع هذه القســمات المميزة الى الملك بقدر ما ترجع الى نفوذ المحيطين به :

أولا : زوجته « تى Tiye » • ويقرر بعض المؤرخين أن والدها لم يكن مصريا صــميما وان أنكر البعض الآخر ذلك ؛ لكن ينعقد الاجماع على عدم انتمائها للأسرة المالكة • وقد أصبحت زوجــة آمنحتب الثالث الأثيرة واشتهرت بقوة الشــكيمة • وكان تأثيرها على مجريات أمور الدولة عظيما فى عهد زوجها وأولادها (أخناتون ، سمنخ كارع ، توت عنخ آمون) •

ثانيا : المستشارون وكبار الموظفين (أى أعضاء الطبقة التكنوقراطية) • وكان فى طليعتهم آمنحوتب بن حابو وعرف بالحكمة وسداد الرأى • ولولا مشورة هؤلاء النصحاء واخلاصهم لبلادهم ومليكهم ، لتمزق شمل البلاد •

ولقد جنى آمنحوتب الثالث ثمرات جهود التحامسة الحربية وعبقريتهم الادارية ، فبلغت مصر فى عهده ذروة قدراتها الاقتصادية وقمة ابداعها الفنى ورفاهتها الاقتصادية • وأصبحت مدينتا منف وطيبة مقصد مهرة الصناع فى الشرق الأدنى وأفريقيا ، وتقاطر عليهما صقالو الأحجار الكريمة وصائغو المعادن وأمها الموسيقيون والراقصات • كما توافد على مصر ابان حكمه عمال البناء والعمال غير المهرة بصفة عامة واللاجئون وأسرى الحرب وقد عملوا بستانيين وأرقاء فى المعابد • والتحقت بجيوش الفرعون أعداد كبيرة من الجنود المرتزقة من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وعمل النوبيون والسودانيون فى كتائب الشرطة •

ونتيجة للسلم الذى حظيت به مصر فى غضون عهد هذا الملك ، أن راجت التجارة الخارجية رواجا عظيما • فغدت مصر تستورد من آسيا الغربية الأخشاب الثمينة لصنع الأثاث والتوابيت ، واللازورد والمنسوجات الأرجوانية والفضة والبرونز والخيول • وتشترى من ليبيا الثيران ومن أفريقيا الجلود وريش النعام والعاج والأبنوس والصمغ • ومن بابل المجوهرات ومن جزائر بحر ايجه

المعادن المطروقة .. الخ . وتعاظمت الحركة التجارية لارضاء أفراد البيت المالك الذى احتشد بالأميرات الأجنبيات واقتناء المصنوعات الأجنبية .

وطبيعى أن يؤثر اصطناع الطبقة المصرية العليا للأساليب المادية الأجنبية على الثقافة المصرية التقليدية . وتتجلى هذا التأثير بالذات فى اضعاف النزعة المحافظة فى الأدب والفن وألوان الثقافة على اختلافها . ولقد شرعت الثقافة تصطبغ بصبغة أجنبية ما كان يتصور اقبالها عليها فى ماضى الأيام ، وأنجب هذا العهد رعيلا من الفنانين كانوا أداة ثورة أخناتون الفنية كما سيتبين لنا فى فصل تال . ولقد خلف آمنحوتب الثالث آثارا رائعة لم يبذه فى ضخامتها وعددها سوى آثار رمسيس الثانى .

وكثيرا ما كان الملك يضيق ذرعا بجشع كهنة آمون للمال ورغبتهم الملحة فى الاستحواذ على السلطان . فسعى الى كسر شوكتهم وعمل على التحرر من نفوذهم الطاغى ، وذلك بالاشادة باله الشمس واظهار العطف على كهنته . وتردد اسم « آتون » فى عهده . بل لقد شيد له معبدا . وأبرز مساعى الملك للحد من سلطة كهنة آمون تقليده ابنه البكر وولى عهده « تحوتمس » منصب كبير كهان « بتاح » رب منف . وطالب ابنه ببذل الجهود لاحياء العاصمة القديمة ونشر عقيدتها الاقليمية . لكن توفى هذا الأمير

وانتقلت ولاية العهد الى آمنحتب • ولعل آمنحتب الثالث لو امتد به الأجل ولم يغرق حتى أذنيه فى اللذات الحسية التى أنهكت صحته فأصابته بالعلل والأسقام على اختلافها ، لبذل المزيد من التدابير لاضعاف سلطان آمون وكهنته •

ومهما يكن من أمر صدق نية آمنحوتب الثالث فى الحد من نفوذ كهنة آمون ، فلقد استسلم لملذاته وأرغمه اعتلال صحته على ايثار السلامة على الكفاح • فكان أن تراضى مع الكهنة بأن شيد معبدا ضخما لآمون ، فقابل الكهنة رغبته هذه فى التعايش السلمى معهم باعلان أن الملك قد انحدر من صلب الاله نفسه •

٣ ـ عهد آمنحوتب الرابع (أخناتون)

● آلت ولاية العرش الى آمنحتب الرابع بعد وفاة أخيه « تحتمس » • وتجمع الآراء على اعتلال صحة آمنحوتب • وقد بعث به أبوه الى منف ليتعلم فنون الحرب ويتمرس على صيد الأسود والغزلان والحمر الوحشية ليقوى بدنه ويصلب عوده ، ليكون خليقا باعتلاء عرش الفراعنة الأمجاد • لكن الألعاب الرياضية وفنون الحرب العنيفة لم تستهوه ، وآثر تكريس جهوده لدراسة الأدب والفلسفة واللاهوت • وعاونه على ارضاء تطلعاته الفلسفية قرب منف من مدينة (أون = هليوبوليس = عين شمس) حيث

مركز عبادة رب الشمس بكافة أسمائه . رع ، آتون ، خبرى ، حور آختى .. الخ ـ واشتهر كهنتها بتساميهم الثقافى مما ظهر أثره فى اقبال كهنة المعبودات المحلية الأخرى على ربط معبوداتهم بالشمس بصورة أو بأخرى ، كما دان الجميع بالزعامة لرب الشمس . واقتنع الأمير بعبادة الشمس فعبد ربها قبل أن يلى العرش فى أكمل تجلياته ، أى وقت اشتداد قوته واكتمال ظهوره : قرص الشمس ، أى آتون اصطلاحا .

وفى العام الثامن والعشرين من حكم والده أشركه معه فى الحكم . وتزوج من نفرتيتى ابنة « آى » أحد الكهنة وكان قائما على رعاية الاصطبلات الملكية . وعزف الأمير عن اتخاذ حريم كوالده .

ولقد ورث آمنحتب الرابع عن والده موقفا عصيبا وتركة مثقلة :

أولا : كانت مملكة ميتانى حليفة مصر تكابد ضغط مملكة حاتى .

ثانيا : دأبت مملكة حاتى على تحريض أمراء سوريا على التمرد على الفرعون .

ثالثا : اشتدت نزعة البدو للسلب والنهب والعدوان على القوافل . فشاع الاضطراب فى أنحاء فلسطين .

وكان الموقف الحرج فى مسيس الحاجة الى ملك من طراز

التحامسة الذين كانوا يتصدرون جيوشهم فى آسيا ، فيستأصلون جذور التمرد ويعالجون الاضطرابات بمنتهى الحزم . وصدف أخناتون عن تقبل نصح مستشاريه العقلاء ، بل لقد آثر أن يتخذ مستشارا له والدته الملكة « تى » وزوجه « نفرتيتى » وحماه الكاهن « آى » . وهذا الكاهن قد أوصلته انتهازيته فيما بعد لاعتلاء العرش .

وعوضا عن أن يهب الفرعون لنجدة مملكة ميتانى ، انغمر قلبا وقالبا فى فلسفة اللاهوت ، واستهلك طاقاته الجسدية والنفسية والفكرية فى صوغ آراء مثالية جعلت منه أول أئمة الفردية المبشرين بمنهاجها فى التاريخ .

ورزق من زوجته بست بنات . وتصورهما الرسوم جنبا الى جنب فى كافة المناسبات العامة ، وغالبا ما كان اسمها يكتب الى جانب اسمه . ولقد خلفت لنا رسوم العمارنة مناظر عائلية تنبى عن التآلف الصادق الذى جمع بين هذين الزوجين المحبين : فثمة رسوم تظهرهما يداعبان بناتهما ، وأخرى أثناء تناولهما الطعام ، ومناظر أثناء استحمامهما وتجمعهما معا . ويبدو أن ابنتهما الكبرى « مريت آتون » قد تزوجها « سمنخ كارع » ولى عهد أخناتون ، وماتت الثانية « مكيت آتون » فى حياة أبويها وتزوج توت عنخ آتون الابنة الثالثة « عنخ سن با آتون » . ولم يعرف مصير الباقيات .

وفى السنوات الأخيرة من حكم أخناتون أشرك معه فى الحكم

« سمنخ كارع » • ومات أخناتون عام ١٣٧٢ قبل الميلاد ، ولم يعثر على موميائه حتى الآن • ولعل ثرى مصر يدخر مفأجأة مذهلة للمؤرخين وعلماء اللاهوت اذا ما كشفت مقبرة أخناتون ، وأمكن ـ عندئذ ـ اماطة اللثام عن مزيد من المعلومات التى ما برح التاريخ والفلسفة واللاهوت تفتقدها عند دراسة أخناتون : كملك ، وكمصلح دينى واجتماعى •

• الفصل الثالث

الثورة الدينية

١ ـ الوضع الدينى قبل اخناتون

● نشد قدماء المصريين ـ كغيرهم من الناس ـ الاتصال بالقوة الالهية القدسية . فكان أن وقع اختيارهم على طائفة من الأشياء ذات الصفات الخاصة التى تقع تحت أبصارهم ، ظانين أنها خير وسيلة تكفل مبتغاهم . وان كان لا ينكر أن عامة الناس قد عجزوا عن ادراك الطابع التجريدى على حقيقته ، مثلما تدركه الصفوة المثقفة ؛ فلم يجاوز تفكيرهم ـ والحالة هذه ـ الجوانب المادية وحدها ، وهم فى هذا الشأن كأمثالهم فى كل زمان ومكان ، ولا أستثنى العصر الحديث . ومن الناحية الأخرى ؛ اقتضى الفن المصرى ـ وله أهمية بالغة فى المجتمع المصرى ـ تجسيد الفكرة الالهية وتمثيلها فى صورة مادية تحيل الصور الذهنية الى رسوم مرئية أقرب الى فهم عامة الناس ، سيما وبيئتهم زراعية .

لكن يروع معظم الباحثين المعاصرين ذلك الفيض من الأرباب الذين تتغير أسماؤهم وأشكالهم ، تغيراً يتسم بالتعدد الشديد فى

المزايا والمؤهلات وبالتناقض فى كثير من الحالات • ولقد تظهر تلك الأرباب فى هيئات بشرية أو أشكال حيوانية أو صور نباتية أو فى قالب يجمع بين رسمين أو أكثر • وغالبا ما يصعب التأكد من هويتها من غير أن تصحبها تقدمة أو ديباجة •

وأبرز مثال يطالعنا فى هذا المجال وضع الرب آمون الاله الاقليمى طيبة : فانه يحمل لقبى « ملك الأرباب » و « سيد السماء »؟ ويمثل عادة كرجل يتبدى بطلا ، لكنه يوضح فى بعض الأحيان فى صورة أوزة أوكبش • ولما أدمج مع رب الشمس « رع » غدا يمثل طاقة الشمس الخفية التى هى علة النماء فى الطبيعة • كما عزا اليه الكهنة هبوب النسيم العليل الذى يجدد نشاط المكدودين، ويدعون أنه يلبى تضرعات الفقراء والمستضعفين من الناس ويغيث الملهوفين • وصوره الكهنة كذلك فى صورة الرب « مين » المسئول عن الاخصاب والاستيلاد • كما أنه يمثل الأب فى الثالوث الذى يضمه هو والربة « موت » الأم و « خونسو » الابن • وجدير بالذكر أن العقلية الدينية المصرية دأبت على تمثيل أربابها فى صورة عائلية تجمع الأب والأم والابن وذلك اقتداء بأسرة النيل العظيم (النيل ، الأرض ، النبت) • وقاد هذا التفكير الى تقديس الحياة العائلية المصرية قبلما تدرك القداسة العائلية بقية العالم بآلاف السنين•

وما كان المنحى التفكيرى الدينى المصرى ليفرق بين وجه

وآخر من أوجه ربوبية آمون ٠ ذلك لأنها لديه سواء ، وتتساوى عنده المظاهر المتعددة ٠

بيد أن الشرك يقع فى نطاق أربعة مجالات رئيسية يتيسر تمييزها ، وان تعذر عزل أحدها عن الآخر :

المجال الأول ـ المعتقدات المتصلة بالأنعام ـ وترتد بجذورها الى عهود ما قبل التاريخ ، وقتما كان أجداد قدماء المصريين يمارسون رعى الماشية ٠ واذا كان لبن البقرة غذاء الانسان فى شبابه وكهولته ـ ابان تلك الحقبة من تطوره الثقافى ـ مثلما أن لبن الأم غذاء الانسان فى ابان طفولته ٠ فكان أن أعتبر البقرة الأم الطبيعية للبشرية ٠ وتفرع عن هذه النظرة اعتبار الثور والكبش القوة الفعالة للرجولة ، ولعمرى تلك فكرة تتفق مع الأوضاع الاقتصادية للمجتمعات البدائية ٠ بيد أنه على الرغم من انتقال المجتمع المصرى الى مرحلة الزراعة ـ وما تبع ذلك من نشوء آراء طريفة عن الربوبية ٠ لكن ؛ أبت العقلية المصرية المحافظة الى أقصى الحدود الا أن تتشبث بمعتقدات الأجداد ، فى صورة أو فى أخرى ٠

المجال الثانى ـ معتقدات تتركز حول ظاهرة الفيضان التى أذهلت المصرى القديم ٠ اذ تتحول الأراضى المزروعة خلاله الى « لاتكون » مائى يتولد عنه ـ بعد انحسار الفيضان ـ عالم جديد ٠ فهذه المعجزة السنوية لانبعاث الأرض الجديدة وكانت فى البداية

سحلولا (١) من الرمل أو رابية من الثرى تخلفت عن القفر المائى ؛ قد استثارت الخيال المصرى : اذ دار فى خلده أن خالق الكون قد وجد على الرابية البدائية (٢) مكانا راسخا اتخذه قاعدة لانجاز فعل الخلق ؛ وبفضله خلق العالم وما عليه من حالة « اللاتكون » . وعلى هذه الرابية حط الاله فى صورة طائر هائل (كان صقرا فى رأى البعض والعنقاء فى رأى البعض الآخر وأبو قردان فى رأى آخرين) يعتبر هو تجلى الاله . ومن هذه الرابية البدائية طلع الانبات الجديد وبرزت الحياة الحيوانية ، وبات كل منهما يحصل على طعامه من الآخر . وعلى مدى الأحقاب ارتفعت المياه الكامنة تحت الأرض لتبتلع الأرض العاطلة العطشى فتتجدد فيها الحياة بفضل الفيضان .

وفكرة البعث والنشور بفضل المياه التى تهب الحياة قد امتزجت بالمعتقدات المصرية امتزاجا عميقا وأثرت فى نظرة المصرى الى الدنيا والآخرة ، كما ألهمته فكرته عن أصل العالم .

المجال الثالث ـ يتصل بالملك المؤله ـ أى الاله المتجسد فى انسان . وترجع الفكرة بأصلها الى عصور ما قبل التاريخ : الى رئيس القبيلة أو صانع المطر الذى ينسب اليه قومه القدرة على

---

(١) السحلول : لسان رفيع من الارض يذهب فى البحر .
(٢) البدائى : من حيث البدائية فى الزمان أو الحالة .

التحكم فى العناصر ، ويستحوز على لون من السلطان يمكن شعبه من العيش فى صحة وهناءة • ولما حلت العصور التاريخية ؛ أصبح الفرعون هو الاله السامى ، هو حور متجسدا فى انسان •

وبالتالى ؛ اتسعت قدرات رئيس القبيلة المحلية فأصبحت تشمل أمة ضخمة العدد • وساد الاعتقاد بأن حور يظهر للرائين فى هيئة صقر ؛ فهو رب السماء بأسرها ، وما الفرعون على عرشه الا صقر فى عشه ، فان مات جسده طارت روحه الى السماء •

المجال الرابع ـ تتبدى فيه القوة الربانية فى الشمس المرئية• وتعتبر هذه الفكرة آخر تطور وأرقاه للمنحى التفكيرى المصرى عن الربوبية • ويرد هذا التطور الى الثقافة العالية لكهنة عين شمس• ومدار المذهب الشمسى أن رب الشمس « رع / آتوم » قد خلق الكون وكان حاكمه الأول ، ثم نصب الفرعون خليفة له • وليس الفرعون تجسيد لرب الشمس لكنه ولده ، اذ تمثل للملكة الوالدة فى صورة أبيه البشرى فحملت منه الفرعون •

لكن ؛ يلاحظ تغلغل هذه المجالات الأربع وتداخلها فى بعضها بعضا ، فتشابكت وتعقدت ، وهذا ما يطالعنا فى الأمثلة التالية :

أولا : صور حور اله السماء على أن يحمل على جناحيه قرص الشمس عبر السموات • وهذا ما دعا لادماجه فى عقيدة الشمس •

ثانيا : اذا كان « حور » يتجسد فى الفرعون ، فقد أصبح ابنا لرب الشمس •

ثالثا : لعل أوزير كان فى الأصل ملكا قبليا مؤلها وفق الرأى المتبع فى المجتمعات البدائية فى عصور ما قبل التاريخ • واذا كان المألوف فى ابان تلك العصور القضاء على الملك اذا ما ضعفت قواه ؛ فقد قتل وقطعت أوصاله ودفنت فى أماكن متعددة من أنحاء ملكه استجلابا للخصب (١) • واتخذ العقل المصرى من الأسطورة ركيزة ليربط بفضلها دورة الأرض والبعث مع عقيدة الملك المؤله ومع العقيدة الشمسية • فالفرعون وهو حور الحى ـ يغدو « أوزير » بعد وفاته ويدفن جسده فى الرابية البدائية ليحقق الخير للبلاد ، بينما يغدو ابنه « حورا » جديدا •

٢ ـ تدابير أخناتون

● افتتح أخناتون عهده باصدار قرار بالشروع فى استغلال محجر جبل السلسلة ليستخرج الحجر الرملى لتشييد معبد ضخم فى الكرنك للرب « آتون» ؛ ويقع هذا المعبد شرق معبد « آمون »• وأمر الملك باقامة شاهد حجرى فى هذا الجبل ليخلد هذه المناسبة •

(١) أنظر شرح الفكرة بالتفصيل فى كل من
Freud : Moses and Mono theism.
Frazer : The Golden Bough.

وجدير بالذكر أنه لأول مرة فى التاريخ المصرى ، يسجل اسم المعبود الجديد « آتون » داخل « خراطيش » (٢) أسوة بما كان متبعا في تسجيل أسماء الملوك عند الاحتفال بتوليهم العرش . وقد وصف بأنه « آتون الحى ، العظيم ، سيد السماء والأرض » . كذلك يلاحظ أن أخناتون قد عزف كلية عن تجسيد اله الشمس برسمه فى هيئة طائر أو حيوان أو انسان له رأس صقر يحمل قرص الشمس وفقا لما كان متبعا من قبل . فلقد عمد أخناتون الى ابراز « آتون » فى صورة تجريدية عبارة عن حفر غائر لشعاع الشمس : قرص يكتنفه رمز الأفعى المقدسة فى تاج ملوك مصر الأقدمين (٣) وتتدلى من عنقه علامة الحياة (٤) ويخرج منها عديد من أشعة الشمس تنتهى بأيدى بشرية .

واعتبر كهنة آمون تشييد معبد ضخم لآتون في الكرنك ـ فى قلب مدينة آمون ـ تحديا خطيرا لمصالحهم الموروثة ؛ وبخاصة وقد اقترن هذا بتغيير الملك اسمه من « آمنحوتب » أى آمون راضى الى أخناتون أى المفيد لآتون . فأصبح الصدام بينه وبين كهنة آمون أمرا مقضيا . فكان أن شنوا عليه حملات ضارية ، وراودتهم الآمال فى القضاء على شخصه ذاته .

---

(٢) الخرطوش : كتابة هيروغليفية فى اطار صغير كان يكتب داخله أسماء الملوك عادة تمييزا لأسمائهم عن الكلمات العادية .

(٣) أورايوس ـ اصطلاحا .

(٤) عنخ ـ اصطلاحا .

وواجه الملك العاصفة بالتصميم البات على القضاء على الشرك من البلاد عنوة واقتدارا • فأمر بتجريد حملات من العمال تحت قيادة نفر من خلصائه لمحو اسم آمون من على الآثار والمعابد • وتجاوز الأمر الى شطب لفظ آلهة أينما وجد وتحريم عبادة الآلهة الأخرى • ولم تسلم ديانة أوزير الشعبية من حملته لفرض عبادة آتون والقضاء على الشرك جملة وتفصيلا •

ولم يعهد العالم قبل أخناتون هذا الاتجاه الجارف للتخلص من الشرك • اذ كانت الأرباب تعيش في وفاق جنبا الى جنب ، فكان ثمة تعايش سلمي بين مريديها الى أن جاء أخناتون ونادى بأن لا مجال للشرك ولا موضع للايمان باله غير الاله الواحد الأحد الذى لا شريك له • ثم تلته فى هذا السبيل العقيدة المسيحية فالاسلام ـ وفق الظهور الزمنى ـ ويأنف كلاهما من التعايش مع الشرك والأوثان •

واذ ألفى أخناتون أن بقاءه فى طيبة يحد حريته فى نشر مبادئه ، نقل عاصمته بعد ست سنوات من حكمه الى مدينة جديدة شيدها وأطلق عليها « آخيتاتون » (أي أفق آتون) وتقع فى منتصف المسافة بين منف فى الشمال وطيبة فى الجنوب ، وتعرف الآن باسم تل العمارنة • وأعلن أن آتون هو الذى هداه الى موقعها وأنها أرض بكر لا يحرزها رب من الأرباب أو الربات وليست ملكا لفرد من الأفراد • ثم أقسم الملك بأن يكرس المدينة الجديدة

لعبادة آتون وحده وأنه لن يتركها ولن يجاوز حدودها الشمالية والجنوبية طيلة حياته •

وشيد الملك المعبد وسط المدينة ، وامتدت أبنيتها حوالى الأحد عشر كيلو مترا من الشمال الى الجنوب ، وما يقرب من الكيلو ونصف من الشرق الى الغرب • وأمر بالاكثار من الحدائق وزرع الأشجار على جوانب الطرق • واتصـل القصر الملكى بالمعبد ، وحرص أن تغمر الشمس كل مكان فيه ، اذ ليس ثمة خفاء وأسرار • وحرص الملك على عدم الفصـل بين العامة والخاصة ، فلقد اختلطت قصور الأغنياء بدور الأتبـاع • ونحت الملك وأتباعه لأنفسهم قبورا على الشاطىء الشرقى للنيل ، عكس ما كان متبعا من قبل من دفن الموتى فى البر الغربى •

٣ ــ خلفاء أخناتون

● تولى توت عنـخ آتـون العـرش وسـنه لا يتجـاوز العشر سـنوات ؛ وتأيد حقه فى اعتلاء العرش بزواجه من وريثته الأميرة « عنخ اس ان با آتون » ؛ وقد توج بمدينة منف • وما كان لملك فى مثل سنه أن يحمل لواء الدعوة للعقيدة الآتونية • ويبدو أن خلصـاء أخناتون ومريديه المقربين قد اختفوا بزوال سـيدهم وتصدع دعوته ، الا أن الكاهن « آى » استطاع وحده أن يتكيف مع الموقف فاحتفظ بمركزه وخاصة أنه كان جد الملكة الجديدة •

وجابهت مصر بعد وفاة أخناتون مركزا عصيبا للغاية ، وكانت على شفا حرب أهلية ، وتمزقت امبراطوريتها بسبب تهديد الحيثيين وعدوان البدو ، وضاعت هيبتها . وأنذرت تلك الأحداث الجسام بتحللها الحضارى ، بل ووقوعها لقمة سائغة بين أيدى أعدائها . فجاء تنصيب توت عنخ آتون اجراء قصد به الحفاظ على وحدة البلاد حتى تتمكن من تعبئة طاقاتها لدفع الأخطار عن كيانها .

وجاهد من أصبحوا يملكون زمام الأمور من وراء الفرعون الصغير فى العودة بالبلاد الى ما كانت عليه . فأشاروا على الملك بتغيير اسمه الى توت عنخ آمون كمظهر للرغبة فى العودة الى الأوضاع القديمة . وهجر البلاط الملكى آخيتاتون (العاصمة المستحدثة) واستقر فى طيبة . وقامت حركة ترميم المعابد والنصب التى هدمها أخناتون أو بدل معالمها على قدم وساق . وضوعفت أملاك معابد آمون والتحق بخدمة رب طيبة عدد هائل ممن كرسوا أنفسهم لخدمته ظاهريا ولكنهم التمسوا المنفعة المادية أولا وأخيرا .

وارتقى الكاهن آى العرش بعد وفاة توت عنخ آمون (ولعله قد قتل) ولم يحكم سوى ثلاث سنوات وخلفه « حور محب » القائد العظيم ؛ وحكم مصر ثلاثين عاما أمضى كثيرا منها فى ساحة القتال يقر السلام فى أنحاء الامبراطورية .

٤ – طبيعة الاله فى العقيدة الآتونية

● التنافر واضح بين كل من آمون وآتون :

فان معنى اسم آمون : المختبىء الذى لا يرى والقوة الشاملة لكل شىء • وكان يرسم على شكل انسان تارة أو غير ذلك من الأشكال المرئية • ويقع قدس أقداسه فى آخر المعبد وفى أشد أجزائه ظلمة • ولا يمكن بلوغ هذا المكان الا بعد تأدية طقوس معقدة لا يسمح بتأديتها الا لأشخاص محدودين للغاية • وكان هيكل الاله يلف أثناء المواكب العامة بغطاء حتى لا تقع أعين بقية الناس عليه ، ويحمله كهنة مختارون •

أما آتون ، فانه قرص الشمس ذاته الواضح للعيان ، فلا يمكن حجبه عن أى انسان • وكانت المعابد الآتونية مفتوحة للسماء لتتيسر عبادة الاله فى صراحة واضحة بمنأى عن الغموض • وليس لآتون شكل انسانى ألبتة • وانحصرت صلة آتون بالهيئة الانسانية فى أن الأشعة التى تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيدى انسانية تقدم رمز الحياة الى العابدين •

ويتجلى اخلاص أخناتون لمبدأ الوحدانية الجليل من تحتيمه على أتباعه أن يطمسوا كلمة « آلهة » أينما وجدت ، حتى عبادة أوزير الشعبية لم تنج من حملته الضارية على الشرك •

واذا كانت العالمية هى الدعامة الأساسية لعقيدة آتون ، فانه

الاله الواحـد للكون بأسره ، فلا يقتصر الايمان به على قطر دون آخر أو اقليم دون اقليم ، فلقد أقام مدينة لآتون فى النوبة وأخرى فى آسيا ٠

ولقد أطلق أخناتون على نفسه ابتداء من السنة الخامسة لحكمه ، ذلك الذى يعرّف اسم « آتون » فأخناتون اذاً نبى الاله ، ولم يدع أنه الاله مثلما ادعى الفراعنة من قبله ومن بعده ـ وكما ادعى ذلك ملوك آخرون فى بلاد أخرى وعصور مختلفة ـ أنهم آلهة أو أبناء آلهة ٠

وبالأحرى ؛ سعى أخناتون للاستعاضة عن جمهور الآلهة المصرية التقليدية ـ يتزعمها آمون / رع ـ بعبادة اله غير منظور ، لكن تتبدى قدرته لأعين الناس فى آتون (أى قرص الشمس) ٠ فالآتونية لم تكن مجرد نظرية طبيعية ، لكنها كانت توحيدا أصيلا ٠ وان العظمة الحقيقية لهذا المصلح العظيم تكمن فى شجاعته الخلقية وفى جهاده حتى آخر لحظة من حياته ليزيح عن كاهل المجتمع المصرى تلك النفايات الأسطورية التى تراكمت على عقله ووجدانه حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره السليم ٠

فأخناتون قد بشر قبل ظهور المسيحية بأكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة وقبل البوذية بثمانمائة سنة بوحدة البشرية باعتبارها من المنجزات الربانية المجيدة ، كذلك فانه نادى بالمساواة بين أفراد

البشر جميعا لأنهم مخلوقات رب واحد لا شريك له . وهذا ما عناه بقوله فى نشيد التوحيد :

خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر . وأقمت كل انسان فى مكانه .

ودبرت لكل انسان ما يحتاج اليه وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة .

لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم .

كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم .

ويؤكد العلامة « برستد (١) أن الأجل لو امتد بأخناتون لأقام عقيدة دينية عالمية مركزها الأساسى مصر ثم تنتشر فى جميع أنحاء العالم . ويدلل على رأيه باقامة معابد لعقيدته الدينية فى أنحاء الامبراطورية المصرية .

ومن رأى المؤرخ الكبير آرنولد توينبى أنه لو قيض للآتونية الانتشار لتغير مسار التاريخ المصرى كلية ، بل والشرق الأدنى بأسره .

بيد أن خلو عقيدة أخناتون من فكرة الثواب والعقاب فى

---

(١) صفحة ٣٣٢
Brestead J.H., The Development of Rel'gious Though in Ancient Egypt.

حياة أخرى سبب جوهرى ـ فى رأينا ـ لعزوف الشعب المصرى عن اعتناقها • فان الطبيعة المصرية ـ كما ذكرنا من قبـل ـ توحى الى المصرى بالبعث • وهـذا ما دفعـــه للاعـراض عن الايمـان باليهودية ، وحفزه للاقبـال على اعتناق المســيحية ، ثم الترحيب الحار باعتناق الاسلام •

٥ ـ أصالة المنحى التفكيرى لأخناتون

ليس اسـم « آتون » ويرمز لقرص الشمس ، بالشىء الجديد على مصر ابان عصر الأسرة الثامنـة عشرة • اذ قد ظهر الاسم قبل أخناتون فى السـجلات المصرية البـاكرة ، بما فى ذلك « متون الأهـرام » ؛ كمـا كان قرص الشمس (أى آتون) يعبد كمعبود شمسى • وهاهنا يحق للباحث أن يتساءل • كيف أن حلول معبود شمسى (آتون) محل معبود شمسى آخر (آمون) ـ مع التغاضى عن معبود شمسى أعظـم (أى رع) يثير ثورة شـاملة فى الحيـاة الاجتماعية ؟

تكمن الاجابة فى الشكل الذى اتخذته عبادة آتون • ذلك لأنه أسلوب للعبادة لا عهد للمصريين به من قبل ولا من بعد ، الى أن وفدت الأديان السماوية • فانه يتميز بالخصائص التالية :

أولا : كان لزاما على المتعبد لآتون المخلص لعقيدته أن ينبذ الأرباب

الأخـرى ويتبرأ منها : باعتبـارها شركا بالاله الحق الواحد الأحــد • وأن يـكرس المؤمـن بآتون ولاءه له وحـده دون غيره •

ثانيا : لا تعنى عبـادة آتون مجرد عبادة الشمس • فانه يقصد منها عبـادة خواص الشمس التى تهب الحيـاة • وهذا هو المعنى الظاهر من الأبيات التالية الواردة فى نشيد التوحيد :

أنت تضع الجنين فى أحشاء النساء
وتخلق النطفة فى الرجال
انك تحمى الابن فى بطن أمه
وتسكن روعه حتى لا يبكى
ياحاضن الجنين فى أحشاء الأم
يا واهب الأنفاس التى تحمى كل ما خلقت

وهذا ما ينبى عنه التعبير عن آتون بقرص الشمس • فان آتون يعنى لغة « الحرارة الكامنة في الشمس » لكن تمثيل أشعة الشمس بأيد بشرية قابضة على علامة الحياة يعنى بـكل جلاء أن الشمس تهب الحياة • ولا يمكن أن تقصد بالتعبير حرارة الشمس المـادية فى بلد يضج الناس معظم العام من شـدة حرارة الجو واشـتداد القيظ • فالمعنى ينصرف الى تقديس الطاقة مصدر النعم الربانيـة على الانسان •

ثالثا : تعنى اقامة المعبد فى الهواء الطلق وتخلل أشعة الشمس كل أرجائه ، أن الاله يعبد بالروح ، كما يعبد بالحقيقة .

رابعا : تفصح جملة أخناتون على جميع مظاهر الشرك ، عن ايمان صادق بعقيدته . وهذا مالم تعهده الانسانية الا بعد وفود الأديان السماوية الثلاثة .

خامسا : صدف أخناتون عن أن يرسم كمحارب مثل ملوك مصر السابقين ، وزهد فى ابراز جبروت الحاكم . فكان ان أفصحت رسومه وتماثيله عن قسمات شاعرية تنم عن وداعة تأخذ بألباب الناظرين . وعبرت أصدق تعبير عن شخصية انسان تأخذ الأوهام والمثاليات بجماع تفكيره وأحاسيسه .

سادسا : يسفر بعض أبيات نشيد التوحيد عن نزعة تصوفية لا نجدها الا فى ابتهالات متصوفى الأديان السماوية والعقائد الهندية. فان أخناتون هو القائل :

أنت فى قلبى ، ولا أحد يعرفك
غير ابنك أخناتون
انت الذى ألهمته معرفة طبيعتك وطاقتك

ولقد هفت نفس أخناتون أن يحكم مصر بـ « فكرة » أى بـ « حلم » . لكن الدول العالمية لا يتيسر حمايتها الا باستخدام القوة ، مهما يكن من أمر صدق نية حكامها . فان طبيعة أخناتون السمحة

وخلقه الوديع ما كانا ليتقبلا أسلوب أسلافه وخلفائه فى الاستعانة بالقوة للحفاظ على الدولة العالمية المصرية ٠

لقد نشد أخناتون أن يغزو عقول رعاياه بالمحبة ويستولى على قلوبهم بالود ٠ ولهذا كان اتخاذه قرص الشمس رمزا لعقيدته الدينية ٠ لأن قرص الشمس معروف فى جميع أنحاء العالم ، بعكس رموز المعبودات المصرية الأخرى التى ما كانت أفهام رعايا مصر لتستسيغها ، لأنهم جميعهم بدو أو أشباه بدو ٠ ورغما عن ذلك : لم تجد دعوة أخناتون العالمية صدى فى أوساط رعاياه ، بل اعتبروها علامة ضعف حكومة مصر ؛ فانهم اعتادوا طوال قرون رؤية فراعنة مصر يخوضون حروبا ضارية للذود عن المصالح المصرية ويؤثرون الحزم ضد الخارجين عن سلطانهم ٠

وبالأحرى ؛ فان تشبث المجتمع المصرى بتجسيد السيادة السياسية فى انسان بشرى ، قد دفعه للاعراض عن رسالة أخناتون السامية التى رنا من وراء التبشير بها الى تجديد شباب المجتمع روحانيا ٠ وهذا الاخفاق فى الاستجابة لنداء هذه الرسالة ، قاد الى انهيار الحضارة المصرية بعد زمن لم يطل كثيرا ٠

• الفصل الرابع

الثورة الأدبية والفنية

١ ـ الاصلاح اللغوى

● انحدرت اللغة المصرية الكلاسيكية الى الدولة الحديثة عن عصر الدولة الوسطى • بيد أنه حدث فى ابان عصر أخناتون تطور خطير فى معالم اللغة • اذ استعيض عن المنهاج اللغوى القديم بأسلوب طريف قوامه كلمات وأساليب الحديث المألوف بين عامة الناس • وكان الكهنة يفرضون على الكتاب والمفكرين التزام المنهاج اللغوى العتيق واحتذاء التعبيرات التى سجلها السلف على جدران المعابد •واذا كان الشعب المصرى متزمتا بأصله شديد الحرص على الحفاظ على الموروث ، فقد أوحى الكهنة اليه أن لأساليب أجداده الأقدمين قدسية ، جزاء من يحيد عنها الاقصاء عن حظيرة المجتمع بل وتكفيره • ولا يخفى أن تلك الأساليب ظلت تستخدم حوالى ألفى سنة قبل عصر أخناتون •

واذا كانت اصلاحات أخناتون الدينية والاجتماعية قد تقوض بنيانها ، فقد حافظت البلاد على اصلاحه اللغوى • وأصبح هذا

الاصلاح ركيزة نهضة أدبية شارك فيها الشعب بنصيب موفور لم يكن ليتاح له فى ظل لغة تقيد مرونتها اســتعارات عتيقة ، وتكبل حركتها صيغ تحجرت ولم تساير الزمن حتى أصبحت تستغلق على أفهام الناس ؛ الا قلة ضئيلة من سدنة المعابد .

وهكذا ؛ غدا الناس ينظرون الى العالم كما هو قائم فعــلا ويستمتعون بمباهجه . وهذا ما تشهد به أغنيات الحب التى ازدان بها الأدب المصرى فى أعقاب الاصــلاح اللغوى . ويتبين للباحث فضل أخناتون فى هذا المجال من مقارنة كلمات الأغانى الغراميـة فى عصر الدولة الحديثة التى تفيض رقة وعذوبة بكلمات غراميـة تتصف بالجدية والتزمت انحدرت الينـا من عصر خفـرع . وفى الحق ؛ يســفر أسلوب الدولة الحديثة عن تطلع الروح المصرية للالتحام بالنزعة الانسانية .

وهذه اللغة التى انبعثت فى عهد أخنــاتون قد وجـه اليهـا المحافظون على التراث القديم شتى المطاعن متهمين اياها بأنها العامل الأســاسى فى تحلل المجتمع المصرى بدعوى أن اصــلاح أخناتون اللغوى قد تسامح بالنسبة لتسرب العديد من الكلمات الأجنبية الى قاموس اللغة المصرية ، الأمر الذى أضعف أصالة المجتمع المصرى، وبهذه الأصالة ترتهن قدرة المجتمع المصرى على الصمود لتحديات الزمن .

وأكيدا ؛ يمتاز المجتمع المصرى فى ابان فتوته فى قدرته على أن ينجز مرتين عملا خارقا :

الأول : يتجلى فى الحفاظ على أنموذج للغة ظل قائما ـ بفضل حرص المصريين على الموروث ـ حتى تعذر فهمه • ولم يقتصر عدم قابليته للفهم على الطقوس الدينية فحسب ، بل شمل النصوص الأدبية الدنيوية كذلك • فانه على مدار فترة ألفى سنة ، طفقت الدواوين الحكومية تسجل أعمال الدولة بنفس لغة الآباء والأجداد ، وكانت المدارس تدرس ذلك الأسلوب اللغوى كما كانت الطقوس الدينية تمارس بها • أما لغة الحديث بين أفراد الشعب فكانت شيئا يختلف اختلافا كليا عما يقرأ ويدرس ويتعبد به ، الى أن اتسع الخلاف بين لغة الحديث ولغة الأدب والدين والحكومة ، اتساعا أدى الى أنه قد استحال على عامة الناس استحالة تامة ادراك معانيها •

الثانى : تحطمت القيود التى فرضتها نزعة التزمت على الكتاب بفضل ثورة أخناتون الثقافية • اذ قد شرع الناس فى قرض الشعر ونظم الأغانى وكتابة القصص وممارسة الطقوس الدينية •• كل ذلك باستخدام لغة الحديث الشعبى •

وبالأحرى ؛ لم يعد الكتاب يتقيدون بألفاظ خاصة وأساليب معينة تفرضها التقاليد والسنن الموروثة • ومصداقا لهذا الرأى ؛ خلف لنا عصر الثورة الثقافية أدعيات وجهت للملك تفيض بساطة فى التعبير كما تسفر عن محبة الناس لحياة لا عسر فيها ولا التواء ، اذ يطلبون من الاله أن يطيل بقاء الملك ويمد فى عمره حتى يسود

البجع ويشيب الغراب ، وينعكس مجرى النهر وأن يصبح له من رزق الدنيا بقدر ما على الشاطىء من رمل وما على الأسماك من قشر وما على الأنعام من شعر ، وأن تكون أعياده بقدر ما على الطيور من ريش وما على الشجر من ورق .

٢ ـ الثورة على التقاليد الفنية والاجتماعية الموروثة

● أبى أخناتون أن ينتهج أسلوب أسلافه فى الاحتجاب عن الناس واخفاء عواطفه . فيطالع شعبه بوجه جهم اعتزازا بمركزه السامى باعتباره الها متجسدا فى انسان . فالصور التى خلفتها ثورة العمارنة الثقافية ترسم الملك الى جانب زوجته الفاتنة نفرتيتى ، وهى تصحبه فى كل مكان يغشاه . فى المعبد ، وعلى شرفات القصر تطل على الجموع المحتشدة ، وتحمل معه على محفة واحدة فى المواكب الرسمية ، وهى معه فى نزهته ، ويقبل على مداعبتها دونما حرج .

ولا يخفى فرعون عواطفه السارة والمحزنة على السواء . فانه لا يأبه لعذل العاذلين ، اذ يأخذ أطفاله بين أحضانه ويرفعهم بين يديه ليقبلهم . فاذا ماتت احدى صغيراته ، يهده الحزن هدا ويبكيها كما يبكى سائر الناس موتاهم ، ثم يشارك زوجه فى وداعها الوداع الأخير .

بل يسجل فرعون حبه لزوجته وبناته فيقسم بحبهم ولا يلق بالا فى هذا الشأن لأبهة الملك ووقار السلطان وجلال الربوبية التى يضفيها القوم على شخص الفرعون .

ويتضح عنف الثورة الاجتماعية التى فجرها أخناتون فى البلاد من أن المصرى منذ فجر التاريخ كان يطلق على ملكه « الاله الطيب » فكان يصور ملوكه فى اطار يتفق مع تأليهه لهم . بمعنى أنه كان يمثل يافعا قويا كامل الأعضاء يخلو من العيوب والنقائص . أما أخناتون فقد أصر على رسم صوره كما يراها الرسام ، وكان الملك مدفوعا بايمانه المطلق بالحق والقسط مما يتنافى تماما مع نزعة النفاق : سواء تجاه الذات ، أو تجاه المجتمع . ولقد أمر فنانيه أن يرسموه وهو يأكل ويشرب مع أفراد أسرته ، وهو يداعب زوجه وأطفاله ، وهى تضع قلادة حول رقبته ، وهو واقف وقفة استرخاء . وصورت الملكة فى أكثر من نقش بارز فى المعابد والمقابر بجوار الملك فى طراز : ان لم يتخل كلية عن الأساليب التقليدية ، فانه تجدد ليتلاءم مع ذوق العصر الثورى فى الملابس والحلى . وجاءت وضعات الملكة أكثر مرونة عن ذى قبل فى مناظر الحفلات، فكان أن طغى على النقش الخفيف البروز جمال ولطف بلغا أقصى الحدود ، كما اكتسبت المناظر عذوبة مستملحة . وتجلت النزعة الثورية بالذات فى مشروعات تماثيل الملكة ، اذ تفيض صدقا ؛ ويحس

الرائى أنه أمام انسانة تعيش بروحهـا وتجيش نفسيتها بالانفعالات البشرية : تفرح وتتألم ، تسعد وتحزن •

وامتثل أتباع الملك لآرائه الجماليـة فأصبحت الرسوم التى خلفها عصر العمارنة الثورى تنبض بحيوية تستمد أصولها من الواقع والحقيقة • وامتازت التماثيل باظهار طراوة أعضاء الجسم الذى يكاد أن ينبض بالحياة •

وعنصر الحساسية استحدثه فنان العمارنة لأول مرة فى تاريخ الفن المصرى • وحسبنا أن نعقد مقارنة بين تمثال من تماثيل الدولة القديمة أو الدولة الوسطى وآخر من عصر ثورة أخناتون الثقافية وأخص بالذكر تماثيل نفرتيتى وبنات أخنـاتون وتماثيـــل الملك نفسه • كذلك أبدع الفنان فى رسـم حركات الأيدى والأرجل ورسـم النباتات والزهور وأسراب الطيـور • ويجدر بالذكر أن أسلوب الثورة الثقافية الآتونية الفنى قد اهتم بتمثيل أفراد الشعب اهتمامه بتمثيل أعضاء الأسرة المالكة ، فظهر فنانون وعمال يقومون بأعمالهم مصورين على جدران معبد آتون فى الكرنك حيث نشاهد صورهم ضمن الصـور الملـكية • وتتجلى فى مناظر أحجار معبد « برآتون » بالكرنك ليونة الخطوط والواقعية والدقة والجمال ، وهى تلك الميزات النبيلة التى امتازت بها أعمال الثورة •

ولم يعد جسم الملك ينحت ملتفا فى غلالة الاله أوزيريس، بل حتم أن تنحت تماثيله مع اظهار عيوبه الجسـدية • وارضـاء

للملك ، بالغ المثالون فى اظهار شذوذه الجسدى بل وشذوذ أهل بيتـه كذلك • ذلك لأن الديانة الجديدة تعتمد ـ أساسـا ـ على الصراحة والوضوح والتحرر ، كما تحرص على التعبير عن النزعات الفردية والحياة الملكية الخاصـة واظهار العواطف الشخصية • ولقد برع الفنانون حقا فى بث الحيـاة فى أعمالهم وحاولوا ـ فى صـدق بالغ ـ التعبير عن الحياة الباطنيـة المنعكسـة على الوجـه • واهتموا بالخامات النادرة واستخدموا الألوان والأحجار لمختلف مناظر التمثال ليكون أقرب اتفاقا مع الحقيقة • وشـاعت الزخارف الطبيعية وأهمل الفنانون مناظر القتل والصـدام ، بل آثر الفنـان تجميـل لوحته بمشاهدة حيوانات تعدو على رمال الصحراء وأخرى ترقص مهللة لبزوغ الشمس وطيورا ملونة تطير فوق الأزهار مع الحرص على اظهار فكرة الملك القائلة بأن كل شىء فى الكون يرحب باللطيف المنـان •

ولقد كشف فى العمارنة عن أطـلال معبدين يجمع بينهما طابع مشترك ، فهما مكشـوفان للسماء والشمس وينتشر الضياء فى كل مكان • والشمس فى عقيدة آتون هى القوة التى تضفى الحياة على كل الكائنات • كما حرص المهندس على السماح بوجود فتحات داخل الأعتاب التى تعلو الأبواب كى تتخللها أشعة الشمس • ولم يعد المعبد فى نظر أخناتون مقر الاله ، بل غدا له مفهوم آخر : انه مكان يتجمع فيه العـابدون فيرفعون صـلوتهم وأدعيتهم الى الاله

الواحد الأحد الذى يستقر فى أسمى مكان • كذلك ؟ لم تعد الاضاءة فى المعبد تتفاوت مع ضوء نهار مشرق الى عتبة تغشى بهو الأعمدة الى ظلام دامس فى قداس الأقداس حيث يكمن سر الاله • فلقد استلهم المهندس الفنان آراء الملك فى بناء معبد آتون فكان أن جعل أساسه الانتقال من ضوء النهار خارج المعبد الى نوره الساطع الغامر داخله مع انتفاء وجود فرجة بين هذا وذاك • واختفت المسلات والأصنام ـ بل وتماثيل الملك ـ من معابد آتون •

أعنى أن أخناتون هو فى الحقيقة أول من أبدع الفن ذا النزعة الانسانية • وذلك حين حور المذهب الطبيعى الجامد الى مذهب يحفل بالحركة ويفيض بالحيوية الدافقة • وتم ذلك وقتما ألقى فى روع الفنانين حب الطبيعة ليستقوا منها الهاماتهم بفضل انفعالهم بجمالها • فاذا هم يصورون انطباعات وأحاسيس وتأثرات بعد أن كانوا يقتصرون على محاكاة ما يشاهدون و تقليد المناظر التى تقع عليها عيونهم • وعندئذ أسبغت على الفن مسحة تغلب عليها دقة التعبير وتعتبر صدى الأحداث وأولى محاولات التكوين الجماعى •

وفى الحق ؟ ظل أخناتون يجاهد طوال حياته ليتقرب من الشعب ويتصل به اتصالا مباشرا : أى باستبعاد الكهنة ، وكانوا دائما الوسيط بين الفرعون والشعب • ووجد فى الفن بغيته للوصول الى قلوب رعاياه ، فكان أن أقبل على تطويع الفن والأدب للمذوق الشعبى • فانبعثت تلك القيم الفنية النزاعة لمحاكاة الطبيعة ، الصادقة

فى التعبير عن النفس الانسانية والملتزمة الصدق والحق • كما أنه منح فنانيه حرية مطلقة فى اعلان حيـاته العائلية على المـلأ لاقناع الشعب بأن الملك بشر سوى ، وليس الآها أو شبيها بالاله •

وبفضل النزعة الطبيعية والتزام الصدق فى التعبير ، خلفت ثورة العمارنة الثقافية تراثا لا يقـل ثراء عن أبدع ما خلفـه فنانو اليونان في أزهى عصورها •

• الفصل الخامس

تأثير مبادئ إخناتون على العقيدة اليهودية

● هل انقضت مبادىء أخنــاتون بموته واقدام أعدائه على محو اسمه واقتلاع معابده والصاق أبشع الآثام بشخصه ؟

تكمن الاجـابة فى حقيقة لا تمـارى ، مدارها : أن الآراء لا تزول قط ، بل انها تتسرب فى صـورة أو فى أخرى فى عقائد دينية أو تندمج فى طقوس اجتماعية أو تحـور الى قصص شـعبى أو أمثله تسرد للذكرى والعبرة ••• وما الى ذلك من الرســوم المعنوية • فالآراء كالمادة ، لا تقبل الفناء •

وما برح تأثير مصر على سير التقدم البشرى موضع ابحــاث ودراســات العلماء فى معظم بلاد العالم المتحضر ، لكن تبذل عناية أعظم لاسـتقصاء تأثيرها على تطور العقــائد الدينية بالذات • ذلك لاعتبـار الديانة المنبع الذى انبجست عنه السنن الخلقية والمصـدر الأساسى للقيم الأدبية ، كما أنها الرحم الذى استولد الفنون المرئية والديانة دعامة الأدب بجميع ألوانه •

١ ــ نظرية فرويد عن الصلة بين موسى وأخناتون

● رغما عن انتماء العلامة السيكلوجي « سيجموند فرويد Sigmund Freud الى الديانة اليهودية الا أن دراسته لمبادىء أخناتون قد أقنعته بالتأثير الحاسم لهذه المبادى فى تشكيل العقيدة اليهودية •

وأول ما يلفت نظر فرويد ــ مثلما لفت نظر غيره من الباحثين ــ اسم موسى عليه السلام • فان الاسم مشتق من اللغة المصرية القديمة ويعنى طفل ، ويدخل فى كثير من الأسماء المصرية مثل « آمون موسى » ويعنى « آمون قد ولد طفلا » و « بتاح موسى» أى « بتاح قد ولد طفلا » و « رع موسى » بمعنى « رع ولد طفلا »• بالتكرار وكثرة التداول أسقط لفظ بتاح أورع • ودفع طلب السهولة والتماس اليسر القوم للاقتصار على لفظ موسى على أصحاب الأسماء السالفة الذكر • وبالنسبة لليهود ، أسقطوا اسم الاله المصرى حرصا على ابعاد شبهة انتساب بطلهم القومى الى أصل مصرى وبخاصة مع التصاق الاسم باسم واحد من أرباب المصريين •

ولم يكن اسم موسى شائعا عند العبرانيين ، وان ادعى علماء التوراة بأن الاسم تحوير للفظ « موشى (أى المنتشل » • ويخلص فرويد من مناقشته اسم موسى وما أحيط به مولده من أساطير وردت فى سفر الخروج للقول بأن موسى محرر اليهود من رق المصريين وبطلهم ومانحهم شريعتهم وناموسهم لم يكن يهوديا ، بل كان مصريا

صميما • لكن عز على اليهود أن يكون بطلهم القومى أجنبيا فأحالته أساطيرهم الى يهودى وان كانت التوراة قد اعترفت بأنه قد اكتسب حكمة المصريين بأسرها •

كذلك يستدل فرويد على مصرية موسى بأنه ألزم اليهود باتباع عادة مصرية قديمة ألا وهى الختان وقد عرفها المصريون قبل عهد الأسرات أى قبل دخول اليهود مصر بآلاف السنين • وكان المصريون وحدهم دون بقية شعوب العالم يجرون عملية الختان • وقصد موسى من الزام اليهود بها أن يساوى بينهم وبين المصريين فى عادة انفرد بها الآخرون دون بقية العالم وكانوا يحسون بفضلها أنهم أسمى من الأجناس الأخرى • كذلك حتم موسى عليهم عادة مصرية أخرى هى تحريم لحم الخنزير ولمسه ، كما يؤكد مصريته ضعف قدرته على الحديث باللغة العبرية مما دعاه لالتماس العون من هارون العبرى الأصل (١) •

---

(١) يورد أحبار اليهود والمتأثرون بالاسرائيليات أسطورة مبناها أن فرعون كان يداعب موسى وهو ربيبه فاختطف موسى التاج من على رأسه فتشاءم فرعون وأحس أنه سيكون لهذا الطفل شأن فى تقويض عرشه فأراد اختباره فأمر باعداد طبقين وضع بأحدهما تمر أحمر وبالآخر جمر • فأوحى الله ــ كما يدعون ــ الى موسى أن يتناول الجمر ابعادا لشبهة الادراك الناضج عن الطفل ، ووضع الجمر على لسانه فاصبح عييا لهذا السبب •

والرد على هذه الأسطورة :

أولا ــ يستحيل على أى طفل طبيعى أو شاذ أن يلمس النار دون أن تحرق أصابعه فيخلفها فورا فما بالك وقد رفع الجمر الى فمه ثم أودعه اياه ولم يحس =

واذا كان العلامة فرويد يقطع بأن موسى مصرى صميم بل ويرجح أنه أمير من أمراء البيت المالك أو أحد كبار موظفي الدولة، فما الذى يدفع هذا الرجل العظيم وهو فى مركزه السامى أن ينصب نفسه زعيما لحثالة من المهاجرين المنحطين ثقافيا بالمقارنة بالمصريين . وبخاصة وأن سمو المصريين الحضارى كان يبث فيهم نزعة ازدراء كل ما هو غريب ، بل انه يهجر قومه ورفاهة العيش فى البلاط الملكى ليصحب هؤلاء العبرانيين الأجلاف فى رحلتهم الشاقة الى بلاد موحشة ؟ ولم يكن موسى مجرد زعيم سياسى ، بل كان معلم قومه ومانحهم شريعتهم وهاديهم الى عقيدة دينية تتصف بسمو المبادىء ، رغما عن عصيانهم المتكرر له .

ويؤكد فرويد أن اليهود أثناء مقامهم بمصر كانوا يعتنقون لونا من العقيدة الدينية ، لكن ما كانت معتقداتهم الدينية لتبلغ ذلك المبلغ من السمو الذى بشر به موسى . واذا كان موسى مصريا صميما وقد اكتسب حكمة المصريين بأسرها ــ كما تذكر التوراة مفاخرة ــ فلابد أنه بشر بمبادىء دينية عرفت بمصر ولكن لا يمكن أن

= به الا بعدما لذع لسانه . أولا يكفى هذا الفعل لاقناع فرعون بان الطفل غير طبيعى .

ثانيا ــ لو كان موسى قد أمسك بالجمر وأمكنه احتمال قسوة النار ثم وضع الجمر على لسانه ، لفقد النطق كلية .

ثالثا ــ هل عدم فرعون ملك أعظم أمة متحضرة وسيلة يستكشف بها حقيقة الطفل الا بالاستعانة بهذه الحيلة البدائية ؟ .

تكون تلك العقائد الشركية التى تأصلت جذورها بمصر قبل عهد أخناتون وكان بعضها تجسيدا للمظاهر الطبيعية الكبرى مثل الشمس والأرض والنيل والقمر : ان ما بشر به موسى هو مبدأ الوحدانية الجليل ، وقوامه الايمان باله واحد أحد ، فرد صمد ، قادر على كل شىء مدرك لكل شىء ، لا ترسم له صورة • وهذا الحشد الضخم من الأرباب المصرية يرتد بأصله الى آلهة محلية وقتما كانت البلاد تنقسم الى عديد من الأقاليم ولكل اقليم طوطم خاص ، وكانت الآلهة تصور على هيئة حيوانات أو تجمع بين هيئات آدمية وحيوانية • وكان السحر والتمائم والتعاويذ هى أدوات كهنة تلك المعبودات ، وكانت تقام لها طقوس العبادة والمراسم والاحتفالات وتنحت لها التماثيل •

هاهنا يتساءل فرويد : اذا كان موسى مصريا ، واذا كان المصريون على عهده يعبدون أشتاتا من الكائنات المؤلهة ، فما هو مصدر فكرة التوحيد السامية التى اعتنقها اليهود بفضل موسى ؟

يمكننا تلخيص رأى فرويد فى النقاط الأساسية التالية :

الأولى ـ أصبحت مصر لأول مرة خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة دولة عالمية • وفى عام ١٣٧٥ قبل الميلاد ؟ تولى شئونها فرعون شاب حكم فى بداية الأمر باسم « آمنحوتب الرابع » وآلى هذا الملك المستنير على نفسه أن يرغم رعاياه على اعتناق عقيدة دينية جديدة تجافى على طول الخط تقاليدهم العتيقة وتتنافى تماما مع عاداتهم المتوارثة : كانت العقيدة الجديدة توحيدا مطلقا وهذه محاولة تعتبر

أول محاولة من نوعهــا فى تاريخ العالم بأسره • وســـيطرت على سياســـة الملك الجديد نزعة لم يألفها العالم فى عهد اعتناق الأوثان والأرباب المتعددة ؛ ولم تتطالعه الا فى عهد اعتناق أديان التوحيد •

ولم يطل الأمر بحكم آمنحوتب الرابع سوى سبعة عشر عاما : يمض على وفاته عام ١٣٥٨ قبل الميلاد سوى القليل حتى زالت عقيدته الدينية وقضى عليها قضـــاء مبرما ، وحاول خلفــاؤه ازالة اســـمه وتحريم ذكره •

الثانية : اذا كان لكل شيء جديد جذور سابقة ، فانه يتأتى ارجاع أصـــل التوحيد المصرى الى فترة أبعد كثيرا من آمنحوتب الرابع (أى أخنـــاتون) • ففى معبد الكهنة بمدينة « أون » وجدت اتجاهات تنحو لتطوير فكرة اله عالمى والى توكيد سننه الأخلاقية ، وكانت « معات » هى ربة الصدق والعدالة وابنة اله الشمس الأعظم « رع » • وكانت لعبادة الشمس بالفعل مكانة مرموقة فى عهد آمنحوتب الثالث والد أخناتون وسلفه فى الملك وقد سعى للحد من طغيـــان كهنة آمون معبود طيبة على ســـلطان العرش ، فأبرز اسما قديما لرب الشمس هو آتون وآتوم •

وفى هذا الدين الآتونى ، وجد آمنحتب الرابع (أى أخناتون) بغيته •

الثالثة : أخذت أحوال مصر السياسية فى هذا الحين تؤثر على العقيدة الدينية المصرية تأثيرا حاسما • فبفضل انتصارات تحتمس الثالث العظيم غدت مصر دولة عالمية تفيء الى ظلها شعوب عديدة • وأضفت هذه الامبريالية العالمية والتوحيد السياسى تأثيرا على العقيدة الدينية • فاذا كان سلطان فرعون قد بات يمتد وراء حدود مصر الى النوبة وسوريا ، أصبح على الربوبية نفسها أن تنزل عن تحديدها الوطنى فيغدو اله المصريين الجديد ـ كما هو الحال بالنسبة للفرعون ـ السيد الواحد الأحد ذا السلطان المطلق على العالم الذى اتسعت آفاقه بفضل الامبريالية المصرية •

الرابعة : لم ينكر أخناتون قط ولاءه لعقيدة الشمس • وهذا ما يتجلى للباحث فى الأنشودتين اللتين ناجى فيهما آتون • فانه مدح اله الشمس باعتباره موجد جميع الكائنات الحية وحافظها فى مصر وخارجها على السواء ؛ وذلك فى حمية لم تحدث من قبل ووردت بعد انقضاء مئات السنين فى الأناشيد التى مدح بها داود رب اليهود « يهوه » • ولم يقتصر الحال بأخناتون على تنبؤه المذهل بتلك الحقيقة العلمية المتصلة بتأثير أشعة الشمس على الكائنات بأسرها ؛ فثمة ما ينبيء عن أنه لم يعبد الشمس ككائن مادى ، لكنه عبد القوة التى تتبدى طاقتها فى أشعة الشمس • أى أن أخناتون قد أله القوة التى جعلت

من الشمس طاقة مادية تحس جميع الكائنـــات بتأثيراتهـا ، واستعار لفظ « آتون » من المعتقدات المصرية القديمة للتدليل على ذلك الكائن الالهى الواحد الأحد ذى السلطان المطلق على الكون بأسره الموجود فى كل مكان ولا شريك له فى سلطانه. ومصداقا لهذا الرأى ، ذكر فى عدة مواضع من نشيده عبارة « أنت الاله الواحد ولا شريك لك » .

الخامسة : وما كان هذا الفرعون الثائر ليجد طريق الاصلاح ممهداً سـويا . اذ جابهته معارضـة كهنة آمون الشرسـة ، وبلغت مقاومتهم فى ابان السنة السادسـة من حكمه حداً دفعـه الى تغيير اسـمه الآمونى الى آخـر آتونى . وكرس جهـوده لمحو اسم آمون اينما وجده بما فى ذلك اسم والده آمنحتب الثالث . ثم هجـر طيبة حيث تركزت عبـادة آمون وشيد عاصمة جديدة « آخيتاتون » كذلك أمر باغلاق معابد آمـون ومصـادرة الأمـوال الموقوفة على كهنته وتحريم تأدية طقوس عبادته .ثم أمر بطمس كلمة آلهة وأن يكتب مكانها اسم آتون الاله الواحد .

وهاهنا تتبدى السمات الأساسية للعقيدة الآتونية : اذ انتفى منها الشعر والشعوذة والأساطير ولم يسمح برسم الاله على صـورة آدميـة ، وخلت العقيدة من الأرباب وأشـباههم ، وليس فيها ذكر

للعقاب الأخروى • ولم يعد اله الشمس يمثل على صـــورة هرم أو مسلة أو صقر أو ينحت له تمثال ؛ لكنه يتبدى للرائين فى صورة أشـعة تنتهى بأيدى بشرية تقبض على علامة الحياة والبركة المصرية القديمة •

ويلفت فرويد الأنظار الى المشـابهة القوية التى لاحظهـا بين العقيدة اليهودية والعقيدة الآتونيـة : مشـابهة تتحول فى كثير من الأحيان الى تماثل ، وذلك رغما عن اعترافه بالصعوبة الشديدة التى يجابهها الباحث بسبب ندرة مواد البحث التى تخلفت عن التخريب الذى أحدثه كهنة آمون فى جميع ما يتصل بديانة آتون بصلة • أما بالنسبة للديانة الموسوية ؛ فان فرويد يعترف بأنه قد أصابها تحريف شديد على أيدى الكهنة اليهود ولم تسجل الديانة اليهودية فى صورتها الحالية الا بعد انقضـاء ثمانمائة سـنة من النفى اليهودى فى بابل • وهاك بيانا بأوجه التشابه ـ أو التماثل ـ التى سجلها فرويد فى كتابه « موسى والوحدانية » •

أولا : استخدام لفظ « آدوناى » (أو آدونيس السورى) اصطلاحا يعبر عن الاله ، وهو تحريف للفظ المصرى « آتون » •

ثانيا : لا يتحدث المعتقد اليهودى عن حياة بعد الموت ، أى لا يمس موضـــوع البعث • وهذا هو نفس منطق عقيدة آتون التى خالفت بها عقيدة أوزيريس التى تنادى بالبعث فى عالم آخر ،

متأثرة بلا ريب بدورة النيل : فيضان تتلون خضرة ورخاء (ويمثل الجنة) وفيضان يتبعه قحط وامحال (ويمثل النار تشبهاً بالصحراء القاحلة المحيطة بالوادى) .

ثالثا : تحريم تصوير الاله أو رسمه أو نحت تمثال له .

رابعا : تكونت الطبقة المثقفة اليهودية من مصريين أصلاء من بقايا أتباع مذهب أخناتون ممن تبعوا موسى ومن اليهود الذين تشربوا الثقافة المصرية المتأثرة بالآتونية ، وقد أصبحوا جميعا يعرفون ـ وفق رأى فرويد ـ باللاويين وكانوا أدنى أتباع موسى الى قلبه ، وهم الذين حملوا مشعل الثقافة اليهودية وعلموا قومهم الكتابة والقراءة .

خامسا : تدرب موسى على أساليب أخناتون . فألزم قومه بطاعته مثلما تطيع الرعية الملك وفرض عليهم مبادئه عنوة واقتدارا .

سادسا : لاقى موسى مصير أخناتون . اذ عصى اليهود موسى وارتدوا عن عقيدة التوحيد مثلما انتقض المصريون على مبادىء أخناتون ويعتبر سنوات التيه رمزا لثورات أتباع موسى عليه وقد بلغت ذروتها فى عبادة العجل الذهبى وفى كسر موسى الألواح اعلانا عن سخطه على اليهود .

ولكن ؟ ما الذى دفع موسى للتبشير بعقيدة التوحيد فى أوساط اليهود ؟ .

مناط اجابة فرويد أن أخناتون الملك قد باعد بينه وبين شعبه ، وكانت دعوته الدينية عاملا أساسيا فى تدمير ملكه الشاسع • فكان أن نبتت عند موسى (ويجعل منه فرويد أميرا خطيرا من أمراء البيت المالك المصرى) فكرة الاستعاضة عن الامبراطورية المنهارة والشعب الجاحد لرسالة التوحيد ، بامبراطورية جديدة بشعب جديد يمنحهما العقيدة الجديدة التى لفظتها مصر وعزفت عن اعتناقها • ولعل موسى — فى رأيه — أحد حكام الأقاليم المصرية المجاورة للحدود ، فكان عليما بأحوال القبائل السامية التى كانت تستوطن تلك الأقاليم أو تتجول فى ربوعها • ومن هذه القبائل اختار شعبه الجديد فاتصلت بينه وبينها أواصر الألفة والود فأقام من نفسه زعيما عليها ، ثم قادها للخروج من مصر • بيد أنه — أى فرويد — ينادى برأى يتناقض مع التوراة اذ يقول بخروج اليهود من مصر سلمياً استنادا على نفوذه ، ولأن أحوال مصر وقتذاك قد سهلت خروجهم دون مشقة • ويعين تاريخ الخروج بين عامى ١٣٥٨ و ١٣٥٠ قبـــل الميـــلاد ، أى عقب وفاة أخناتون وقبـل تولى حور محب العرش وما تلا ذلك من استقرار أحوال البلاد •

ويستبعد فرويد تماما فكرة استئصال تأثير عقيدة آتون — بعد وفاة أخناتون — بما تحمله العقيدة بين ثناياها من ايمان صادق باله واحد أحد ، فرد صمد • فهو يجزم بأن جامعة « أون » الدينية قد حافظت على عقيدة التوحيد بعد وفاة أخناتون بعدة أجيال • ويعترف

فرويد بأن أحبار اليهود قد أحاطوا موسى بالكثير من الأساطير وحاكوا حوله على مر الأجيال الروايات الخيالية الأمر الذى أسبغ الغموض على تلك لشخصية الفذة كما تروى التوراة سيرتها .

ويعرض فرويد لموضوع ارتداد اليهود عن الوحدانية فيقول بأن أخلاطا من القبائل المستوطنة للأراضى الواقعة بين مصر وكنعان قد انضمت الى اليهود بعد خروجهم من مصر ، وكانت قبائل شمال شبه الجزيرة العربية تعبد كائنا تطلق عليه « ياهوى » . وبذلك أصبح ما يطلق عليه « الشعب اليهودى » يتكون من عنصرين أساسيين :

الأول : عنصر مصرى التربية والعقيدة .

الثانى : عنصر بدوى من شمال شبه الجزيرة العربية .

وهذا ما ظهر أثره فيما بعد من انقسام مملكة داود وسليمان الى مملكتين . اسرائيل واليهودية . وكان عدد اليهود المصريين أقل من عدد من انضموا اليهم من أبناء القبائل الأخرى ، لكنهم ـ بحكم توطنهم الطويل بمصر ـ أسمى ثقافة بما لا يقاس .

وفى قادس ـ كما يقرر فرويد ـ اجتمع الفريقان . الأقلية المصرية (المصريون الأقحاح أى اللاويون واليهود المتمصرون) والغالبية من القبائل البدوية التى انضمت اليهم . وهناك تقبل الجميع اسم ياهوى الاله البركانى معبود منطقة فى شمال شبه جزيرة

العرب على أن يحل محل آتون (أو أدوناى) وأن يكون ربا عالميا مثـــل آتون • كان موسى ـ كما يدعى فرويد ـ قد مات ويرجح قتل اليهود غير لمصريين له قبـل مؤتمر قادس بأكثر من مائة عام • وسعى المجتمعون لاستئصال كل شىء يربطهم بمصر ، فكان أن ربطوا بين موسى وذلك الكاهن الذى أنشــأ ديانة ياهوى فأطلقوا عليه اسم موسى الســـامرى • الا أنهـم ـ تحت تأثير اليهود المصريين ـ قد احتفظوا بفريضــة الختــان وان أنكروا أصـــلها المصرى وأرجــع مؤلفو التوراة أصلها الى عهد بين ابراهيم وربه تمييزا لنسله عن بقية أقوام العالم بحسبانه شعب الله المختار •

وهكذا ؛ عوضــا عن « آتون » المصرى ذى الصــفات الوديعة والخلق الــكريم الذى ينفر من العنف وينشــد السلام ـ وهذه هى صفات المصرى بفضل بيئة النيل الوديعة ـ حل مكانه اله تأثر بالبيئة الصــحراوية الكالحة يصــفه فرويد بأنه : عنيف ، غضوب ، ضيق الأفق العقلى محب لســفك الدماء • وعد أتبــاعه بأن يعوضهم عن أيامهــم الرخيــة فى مصر بأرض تفيض لبنا وعســلا باغتصابها من سكانها الأصليين بحد السيف • ولم تكن ديانة « يا هوى » فى أول أمرها ديانة توحيــد كاملة ؛ فلقد اعترف ياهوى بالآلهة الأخــرى ولــكن على أســاس أنه أقواهم • وهذه فكرة موسى ذات الطابع الروحــانى عن الاله فانه : اله واحــد أحد يشمل ســلطانه الكون

بأسره ، قوى رحيم ، يطالب عابديه بأن ينشدوا الحق والصدق وينبذوا السحر والأساطير والكهانة •

ولقد جهد اللاويون ـ أتباع موسى ومواطنوه من المصريين وفق رأى فرويد ـ فى العمل على انتصار رب موسى واحلاله محل ياهوى الاله البركانى الأصل • ففى غضون السنوات الطوال التى تلت مؤتمر قادس ؛ عملوا على استعادة شريعة موسى وتطويرها والحفاظ على المتون المقدسة والزام الشعب اليهودى بمراعاة طقوس العبادة المأثورة عن موسى ، وتستند على الايمان باله واحد أحد فرد صمد يزدرى الطقوس الوثنية بما تفرضه من تضحيات بشرية ، بينما يتطلب الاله الواحد الأحد من أتباعه الايمان الصادق به والانغمار فى الحقيقة والعدالة ، أى ما يعبر عنه بكلمة « معات » المصرية القديمة •

وليس أدل على صحة نظرية تأثير ديانة آتون على التوحيد اليهودى مما أظهرته الكشوف الأثرية من وجود جالية يهودية بجزيرة ألفنتين بأسوان كانت تتعبد ـ قبل انبعاث ديانة آتون ـ لوثن يدعى « ياهو » كما تتعبد الى معبود مؤنث أطلقت عليه اسم « آنات ياهو » •

ويعزو فرويد ارتداد اليهود عن الوحدانية وايثارهم اعتناق « عقيدة ياهوى » الى طابع تلك العقيدة العسكرى • اذ كان الهـا

بركانيا فظا غضوبا ميالا الى التدمير ، وكانوا مقدمين على غزو فلسطين والفتك بسكانها الأصليين للحلول محلهم • فكان أن صدفوا عن عبادة آتون لما تتصف به كما يتصف صاحبها أخناتون — من وداعة ورقة وايثار السلام والتبشير بالمحبة والوئام بين الشعوب ، لاسيما وأن ظهوره — أى آتون — جاء فى عصر اتسم باستقرار أوضاع الامبراطورية المصرية وانتفاء الحاجة للروح العسكرية بالتالى •

٢ — علاقة نشيد أخناتون بمزامير داوود

● مهما يكن من أمر الاختلاف فى تحديد معالم تأثير مبادىء أخناتون فى الأسس الجوهرية للمعتقد اليهودى ، فثمة حقيقة لا تمارى مبناها تلك المشابهة الصارخة بين فقرات من نشيد التوحيد لأخناتون ومعظم فقرات المزمور المائة والرابع من مزامير داود • وهذا ما يتضح من المقارنة التالية :

نشيد اخناتون	المزمور ١٠٤
١ — حينما تغيب فى افق السماء الغربى اظلمت الأرض وبدت كالميتة •	تجعل ظلمة فيصير ليل • فيه يدب كل حيوان الوعر
٢ — اما السباع فهى تخرج من عرينها	الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها
٣ — تشرق متالقا فى الأفق وعندما تضىء اثناء النهار تبدد الظلام	تشرق الشمس فتتجمع وفى مآويها تربض

(تابع) نشيد اخناتون	(تابع) المزمور ١٠٤
ويستيقظ كل من فى القطرين مهللا ويصحو الناس ويقفون على اقدامهم لأنك انت الذى توقظهم فيغتسلون ويلبسون ملابسهم ثم ينتشرون فى الأرض يباشر كل عمله .	الانسان يخرج الى عمله والى شغله الى المساء
٤ ـ وتبحر السفن شمالا وجنوبا وتعج الطرق بالناس .	هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك
اما الأسماك فى النهر فهى تقفز امامك .	دبابات بلا عدد ، صغار وحيوان مع كبار . هناك تجرى السفن لوياثان
ان اشعتك تنفذ الى اعماق البحر .	هذا خلقه ليلعب فيه
٥ ـ ما اكثر مخلوقاتك ماخفى علينا منها انت اله يا اوحد ولاشبيه لك	ما اعظم اعمالك يارب كلها بحكمة صنعت ملآنة الأرض من غناك

وما أقرب الشبه بين الأناشيد الموجهة الى آتون وبين نشيد القديس فرنسيس الأسيزى الذى يقول :

رباه ـ عظيم كلّ ما خلقت

لاسيما شقيقتى وسيدتى الشمس

التى تهل علينا فتضىء بضوئها النهار

تحمل رمزك يا الهى

ولا يقتصر تأثير عقيدة أخناتون على جوهر العقيدة الدينية اليهودية ، بل يقطع معظم الباحثين فى الشئون الدينية بأن كثيرا من

طقوس العبادة اليهودية قد اقتبس من مصر ومن الطقوس التى كان يمارسـها أخناتون والتى لم نعلم تفاصيلها بعد • ولعل ثرى مصر يدخر لنا مفاجآت تكشف النقاب عن المزيد من المعلومات عن العقيدة الآتونية وبخاصة وقد تقدمت وسائل الكشف العلمى عن الآثار •

• الفصل السادس

الأنشودة الآتونية

كانت هذه الأنشودة مكتوبة مع نشيد آخر على جدران مقبرة الكاهن (آى) فى جبانة تل العمارنة . ونقدم فيما يلى بعض أبياتها .

جميل هوبزوغك فى أفق السماء
يا آتون الحى ، ويا بدء الحياة
اذا أشرقت فى الأفق الشرقى
ملأت كل أرض بجمالك
أنت جميل ، أنت عظيم
أنت تتلألأ مشرقا على كل بلد .
أشعتك تجمع الأقطار وكل ما خلقت
لأنك « رع » وتستطيع الوصول الى أطرافها
وتخضعها لابنك العزيز « نون »
أنت ناء ، لكن أشعتك تملأ الأرض
الكل يراك ، ولا أحد يعرف مسيرتك .
عندما تحتجب وراء الأفق غربا ،

تظلم الأرض اظلام الموت ،
فيأوى الناس الى مخادعهم وقد غطوا رؤوسهم ،
حتى ان الانسان لا يرى صنوه ،
ولو سرق ما يملك من تحت رأسه ،
لما أحس بشيء .
أما السباع فتنطلق من عرينها ،
والحيات تنساب لتلدغ .
والظلمات تخيم فى كل شيء .
العالم كله سكون ،
لأن من خلقه يستكن فى سمائه .
عندما تشرق فى الأفق ، تتألق الأرض .
وعندما تضيء كآتون أثناء النهار ،
تبدد الظلام . وعندما تمنح أشعتك ،
يهلل سكان القطرين ،
ويهب الناس واقفين ،
فأنت الذى توقظهم .
يغتسلون ويرتدون ثيابهم ،
يرفعون أيديهم عابدين جلالك ،
ويشغل الناس بعملهم .

وتمرح الماشية في المروج
وتزدهر الأشجار والنباتات
وتغادر الطيور أوكارها ،
وتبسط أجنحتها بروحك ،
وتقفز الحملان على حوافرها
ويهلل كل ما يطير ، وترفرف أجنحته ؟
عندما تشرق أنت من أجله .
تروح السفن وتغدو على النهر
وتفتح كل الطرق لأنك أشرقت .
أما الأسماك فى النهر فتقفز أمامك ،
لأن أشعتك قد نفذت الى أعماق البحر .
أنت تضع الجنين فى أحشاء النساء ،
وتخلق النطفة فى الرجال .
انك تحيى الابن فى بطن أمه ،
وتسكن روعه حتى لا يبكى .
ياحاضن الجنين فى أحشاء الأم ،
ياواهب الأنفاس التى تحيى كل ما خلقت ،
عندما يخرج من بطن أمه يوم الميلاد ،
أنت تهبه القدرة على أن يصيح

وتدبر له كل ما يحتاج اليه .
واذا صاص الفرخ فى بيضته ،
فذلك لأنك وهبته النفس ليحيا ،
ومنحته القدرة على تحطيمها ليخرج ؟
لقد حددت مصيره ،
فهو ينطلق من القشرة ويصيص ،
ويسعى على رجليه
ألا ما أمجد أعمالك وأجل أفعالك ،
وما أكثر ما خفى علينا منها .
أيها الاله الفرد الصمد ، الذى لا اله سواه !!
خلقت الأرض وفق مشيئتك ،
خلقتها ، ولا شريك لك .
الناس والماشية والوحوش الضارية ،
وكل ما يعيش على الأرض ويسعى على قدميه ،
وكل ما يطير فى الفضاء ويرفرف بجناحيه
أنت تضع كل واحد فى مكانه وتوفر له حاجاته
فى البلاد الأجنبية ، فى سورية ، فى النوبة
أو فى أرض مصر
كفلت الرزق لهم جميعا

ووهبت لكل واحد منهم أياما معدودة
لقد تغايرت ألسنتهم بلغاتهم
وتباينت أشكالهم
واختلفت ألوان أجسامهم
لأنك الذى يميز بين الشعوب .
خلقت النيل فى العالم الآخر ،
ودفعته بقدرتك ، لكى يغذى أهل مصر .
لأنك خلقتهم لأجل نفسك ،
أنت سيدهم جميعا ، الذى يشغل باله من أجلهم .
أنت سيد البلاد الذى يشرق من أجلها .
أنت آتون ، شمس النهار المهيبة الطلعة .
أنت الذى يعطى الحياة أيضا لكل البلاد البعيدة ،
لذا ، قد جعلت لهم نيلا آخر فى السماء لكى يهبط اليهم مطرا،
تتلاطم أمواجه فوق الجبال ،
كأمواج البحر ، لكى تروى حقولهم التى فى قراهم .
ألا ما أعظم تدبيرك
يا مالك الخلود
وهبت نيل السماء للشعوب الأجنبية ،
ولكل الحيوانات التى تسعى على أرجلها فى الصحارى .

أما النيل الحق ، فانه ينبع من العالم الآخر لمصر •
تغذى أشعتك كل المروج
وهى تحيا وتنمو من أجلك ، كلما طلعت عليها •
جعلت لهم الشتاء لكى ينتعشوا ،
لقد خلقت الفصول ، لكى تنمو مخلوقاتك كلها •
وأنعمت عليهم بالدفء ، حتى يتذوقوك •
خلقت السماء البعيدة ، ومنها تشرق ،
ولترى ما صنعت •
وذلك عندما وحيدا ، تشرق صوتك كاتون الحى :
لا معا ، مضيئا : فى جيئتك ورواحك •
تخلق ملايين الكائنات منك ـ أنت الواحد الأحد •
المدن والضواحى ، الحقول والطرق والأنهار •
كل عين ترنو اليك
عندما تكون شمس النهار « آتون » الذى يشرق على الأرض
أنت فى قلبى ، ولا أحد يعرفك ،
غير ابنك أخناتون
أنت الذى ألهمته معرفة طبيعتك وطاقتك •
ان سكان العالم ملك يديك ، لأنك أنت خالقهم •
يحيون عندما تشرق ، ويهجعون عندما تغرب •

فانك أنت الحياة بعينها
والكل يحيا بك
والعيون تستمتع بجمالك عندما تغرب عنها •
ويتوقف العمل عندما تأوى الى الغرب •

• الفصل السابع

سياق الاستدلال

● كرس أخناتون حياته القصيرة للحد من سلطان الكهنة ◆ اذ لم يقتصر نفوذهم على الدين ، بل لقد سيطروا على جميع الوظائف الادارية الكبرى ورتب الجيش ◆

أعنى ؛ أصبح على الشعب المصرى أن يحمل على أكتافه تكاليف رفاهة طبقة ضخمة من الكهنة باتت تستنزف جهوده بدعوى الانفاق على المعابد ، بالاضافة الى طبقة البيروقراطيين تلوذ بالكهنة ◆

وهذا الكفاح ضد كهنة آمون يذكرنا بالصراع الذى نشب بين الكنيسة والدولة فى أوربا الغربية طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر وجانب من القرن التاسع عشر وبدد جانبا ضخما من جهود الساسة والمثقفين وطاقات البلاد الفكرية ومواردها الاقتصادية◆ لكن أمكن للسلطة الزمنية فى أوروبا الغربية اخضاع الكنيسة لسلطانها ويعتبر هذا فى صميمه ثورة ثقافية ، وقد شملت كافة ألوان المعرفة الأدبية والعلمية وتمخضت عن تلك الحضارة العجيبة التى ما انفكت تبرز للانسانية طاقات ابداعية كانت سبيلها لتزعم العالم ◆

الا أن أخناتون قد غلب على أمره • فكان أن أخذ سلطان الكهنة يستفحل يوما بعد آخر حتى انتهى الأمر بتوليهم عرش البلاد • وتمخض عن هذه الردة الثقافية ارتداد العقل وشيوع الخرافات وهيمنة الغيبيات على سلوك الناس ؛ فليس بدعا اذ ينضب معين العبقرية المصرية ، فتنكفىء البلاد فكريا ، فتتقوض تبعا لذلك دعائم السياسة والاقتصاد والثقافة •

وبالأحرى ؛ هفت نفس أخناتون لازاحة عبء الكهنة والبيروقراطية عن كاهل الشعب ، فشرع يشن ثورة دينية ضارية تدعو للايمان بأن لا واسطة بين الاله الحق ، الواحد الأحد ومخلوقاته • وما كان يعقل أن يقف رجال الدين وأذنابهم مكتوفي الأيدي تجاه محاولة الملك ازالة سلطانهم الموروث • واستماتوا في مقاومته حتى اضطروه الى هجران طيبة عاصمة الامبراطورية الى عاصمة جديدة « آخيتاتون » ، ولما مات كان انتقامهم منه ومن حركته الاصلاحية رهيبا مروعا •

ولعل أخناتون رجا أن يحقق من ثورته الثقافية بلوغ أهداف عملية ثلاثة :

الأول : اذا كانت العقيدة الدينية دعامة نفوذ الكهنة ، فقد التزم بايجاد بديل للديانة التى تستتر وراءها طبقة رجال الدين للنفوذ الى السلطان والاستمتاع بأطايب الحياة • وما كان في

مستطاعه أن يكشف سبيلا آخر وهو يحكم شعبا يعتبر في جميع عصوره أتقى شعوب العالم وأشدها ورعا وينفذ الدين الى جوانب حياته المادية والثقافية •

- الثاني : توحيد أجزاء الامبراطورية المصرية على أساس الفكر والروح عوضا عن الاستعانة بالقوة المجردة التي أصبحت تتطلب اقامة جيش دائم شاكي السلاح وخوض غمار حروب دامية باهظة التكاليف ضد أمم فتية ، مع مجابهة انتفاضات الشعوب التي تحكمها مصر عنوة واقتدارا • وهذا ما حفزه الى اعلان أن « آتون » ليس اله مصر وحدها لكنه اله الكون • ولأول مرة في تاريخ البشرية تشيد لاله انبعث لاهوته في بلد ، معابد في بلاد أخرى •

الثالث : أدرك بفضل حدسه واعماله الفكر أن بلاده قد بلغت أوج قوتها السياسية والاقتصادية والثقافية وأنها تسير في طريق الانحدار تحت ضغط جمودها الفكري وتحجرها الثقافي وابتزاز طبقات المجتمع الطفيلية جهود جمهرة الشعب الساحقة • فاذا كانت البلاد قد ظفرت بالهكسوس وسرت فيها روح الابداع في جميع مجالات الحياة ، لكن خبت شعلة النضال وتآكلت الصفات النبيلة التي لازمت المصريين طوال سنوات الكفاح التي حفلت بالآلام وضروب البطولة • ويرجع ذلك الى تأثير المغريات المادية وايثار قيادة الشعب ـ الحكام والكهنة والموظفون ـ الهناءة المادية والاستمتاع بثمار التقدم والارتقاء • ويتراءى لنا عكوف الحكام على رفاهة العيش

التى كان يزودهم بها الفلاح المصرى وأجزاء الامبراطورية ونشاط حركة التبادل التجارى ، من دراسة عصر آمنحتب الثالث بالذات ، كما تطالعنا به مشاهدة أثاث توت عنخ آمون الجنائزى •

كذلك ؛ استبان لأخناتون اتساع الهوة بين الحكام والمحكومين: ماديا ومعنويا وفكريا • فكان أن تاقت نفسه لانقاذ بلاده من الوهدة التى شرعت تتردى فيها ، وذلك عن طريق اعادة صوغ منحاها التفكيرى وتجديد معالم ثقافتها ، وهاهنا يتجدد شباب البلاد وتغدو قادرة على انجاز وثبة ديناميكية تكفل مزيدا من الارتقاء وتقضى بالتالى على عوامل التحلل والفناء •

وهذا ما منيت به مصر بالفعل • فلقد ضاعت سدى الجهود الجبارة التى بذلها حكام مصر بعد عهد أخناتون حتى سقطت فريسة الذل والهوان وضحية أبشع ضروب الاذلال • ومرجع هذا كله عجز البلاد ــ حكومة وشعبا ــ عن الاستجابة لتحديات العصر استجابة فكرية خلاقة •

بيد أنه مهما يقل عن العوامل العملية التى ربما قد رفدت أخناتون لاعلان ثورته الثقافية ، فلا شبهة فى أن العوامل السياسية تأتى فى المكان الثانى من دعوته النبيلة لتحرير الفكر من قيود الموروث من التقاليد البالية والآراء المتحجرة • فاننا نقطع بانتفاء الأغراض الماكيافيلية من تفكيره ؛ أما العامل الأساسى فى تكييف

دعوته فيتبلور فى ايمانه الدينى العميق بصدق دعوته : ايمان انبثق عن شفافية روحية ما برح تساميها يذهل الباحثين حتى اليوم .

ومهما يكن من أمر تسامى عقيدة آتون تساميا عظيما بالنسبة لعصر يبعد عن عصرنا بحوالى ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة ، فقد عجزت هذه العقيدة فى اجتذاب الشعب والصفوة ـ على السواء ـ الى حظيرتها لجملة أسباب نذكر منها :

الأول : انبعثت العقيدة الآتونية من أعلى ، أى من الحاكم : ويباين هذا طبيعة العقائد الفكرية الناجحة التى تتسم بانبعاثها فى أوساط الجماهير وبين ظهرانى الطبقات المستضعفة بالذات . فالعقيدة ـ أية عقيدة ـ لا تفرض بقانون أو أوامر ادارية . وهذا ما جعل الطبقات المصرية الدنيا تصدف عن اعتناق عقيدة أخناتون لأنها صدرت عن السلطة العليا التى تمثل لديها الاستغلال والطغيان .

أما الطبقات العليا ؛ فقد اعتبرت أخناتون خائنا للمصالح المصرية فانه قد كرس وقته كله لعبادة الهه الواحد غير ملق بالا للأخطار التى باتت تحدق بالامبراطرية المصرية وأصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التى كانت تنهال عليه من حكام مقاطعات الامبراطورية . بالاضافة الى أن مبادىء أخناتون تهدر مصالحهم المتوارثة .

الثانى : افتقرت عقيدة أخناتون الى الناحية الميتافيزيقية والشطحات التصوفية . ولهذا فضل مجموع الشعب التزام عقيدته

القديمة حيث توفرت فيها هذه الناحية . ذلك لأن الآتونية قد خلت من الأساطير ، أو بعبارة أوضح من التراث الشعبى الذى يجتذب العامة أساسا الى حظيرة العقيدة الدينية . وقد ذكرنا فى هذا المجال أخناتون قد حارب عقيدة أوزيريس الشعبية التى تمثل الصراع بين الخير والشر وترمز فى الواقع الى الصراع بين الخضرة والصحراء ، أى بين الفيضان والغيضان .

أعنى ؛ أخفق أخناتون لأنه خاطب الفكر ونأى عن العاطفة ، ولأنه عمل على القضاء على التراث الروحى الذى لازم الشعب آلاف السنين دون أن يعوضه ما يرضى عواطفه وأحاسيسه الباطنية وخيالاته .

الثالث : لم يخلف أخناتون مريدين وأتباعا يناضلون للحفاظ على مبادئه ويستشهدون دفاعا عنها : ولو وجدت عقيدة أخناتون مثل هؤلاء الأتباع البررة لاستمال استشهادهم المستضعفين من الناس الى عقيدتهم وآمنوا بمبادئها . وهنا كان يتغير وجه التاريخ المصرى تماما . ذلك لأن العقائد المصرية كانت قد أصيبت بالتحجر فقاد هذا الى أن خبت جذوة الابداع فى النفس المصرية فانتهى الأمر بالحضارة المصرية الى التحلل فالانهيار . فما دعوة أخناتون ـ فى الواقع ـ سوى محاولة ـ كما ذكرنا من قبل ـ لتجديد شباب الروح المصرية لتتهيأ لارساء دعائم منجزات ابداعية طريفة . بيد أن دعوة أخناتون قد انحصر الايمان بها فى الملك وعائلته وفى طائفة من المقربين اليه ،

معظهم من الوصوليين الذين قصدوا من التظاهر باعتناقها تسنم المراكز الكبرى فى الدولة وفى البلاط .

ويتفرع عما تقدم بما يأخذه بعض الباحثين على عقيدة آتون من خلوها من التعاليم الخلقية . فآتون مجرد اله خالق تولى خلق جميع الكائنات وتوفير احتياجاتها . فليس ثمة ما ينبىء عن ثواب للمحسن أو عقاب للمسىء . وتخلو العقيـدة من معنى الخطيئة أو حتى من مغزى اصطلاحى : الصالح والطالح .

وهذا فى رأيى حكم مبتسر يقوم على تلك الأبيات القليلة من نشيد أخناتون ، ولا يعقل أنه لم يخلف سواها طوال حكمه الذى أمضاه فى العبادة والتأمل وكرس ذاته خلاله لنشر مذهبه الثورى . وقد تكون بدائعه الدينية قد فقدت فى خضم حملة التعصب والكراهية التى شنها أعداؤه عليه وعلى تعاليمه .

ولا ينكر أحد على أخناتون صفاءه الروحانى ومزاجه الشاعرى الذى يتبدى فى انتفاء مظاهر الخوف والتدمير والرهبـة والقسـوة والانتقام من عقيدته . فالحق أنه يصـور الرب رحيما شـفوقا برا بمخلوقاته ويسبغ على الجميع أفضاله ويسبحون بحمده ـ لاخوفا ورهبة ـ ولكن بدافع الشكر لأنعمه ، وهذه نزعة لم تظهر بعـد ذلك الا فى مبادىء المسيحية وثبت دعائمها الاسلام ..

ثبت بأهم المراجع

١ - Aldred, Cyril : Akhenaton, Pharaoh of Egypt.

٢ - Breasted : The Dawn of Conscience.

٣ - Breasted : The Development of Religion.

٤ - Freud : Moses and Monotheism.

٥ - Giles, F.G. : Akhenaton, Legend and History.

٦ - Toynbee : A Study of History.

٧ - Wilson, G.A. : The Burden of Egypt.

٨ - د. احمد بدوى - فى موكب الشمس (الجزء الثانى) .

٩ - د. احمد فخرى - مصر الفرعونية

١٠ - د. ثروت عكاشة - الفن المصرى القديم (جزء ١ و ٢)

١١ - د. عبد المنعم ابو بكر - أخناتون

١٢ - د. نجيب ميخائيل ابراهيم (ترجمة) - مصر الفراعنة تاليف السير آلن جاردنر

١٣ - فؤاد محمد شبل - مشكلة اليهودية العالمية

١٤ - فؤاد محمد شبل - دور مصر فى تكوين الحضارة

١٥ - فؤاد محمد شبل - مختصر دراسة للتاريخ (ترجمة عن توينبى)

للمؤلف

١ ـ تقرير غرفة الأسكندرية التجارية عن اقتصاديات مصر والعالم خلال عام ١٩٣٧ .
٢ ـ النظام المالى فى الاسلام .
٣ ـ عصب الحرب .
٤ ـ الدستور السوفييتي ـ دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية) .
٥ ـ المدينة الفاضلة .
٦ ـ السياسات الاقتصادية الدولية .
٧ ـ دراسات فى اقتصاديات القارة الأفريقية .
٨ ـ مختصر دراسة للتاريخ (ترجمة فى أربعة أجزاء) .
٩ ـ التنمية الاقتصادية ـ أصولها وقواعدها .
١٠ ـ منهاج توينبى التاريخى .
١١ ـ حكمة الصين ـ دراسة تحليلية لعالم الفكر الصينى منذ أقدم العصور (جزآن) .

١٢ ـ حضارة الاسلام فى دراسة توينبى للتاريخ •

١٣ ـ مشكلة اليهودية العالمية •

١٤ ـ دور مصر الحضارى •

١٥ ـ البوذية ـ عقيدة وفلسفة •

١٦ ـ شانكارا ـ أبو الفلسفة الهندية سلسلة قادة الفكر

١٧ ـ أخناتون ـ رائد الثورة الثقافية سلسلة قادة الفكر

١٨ ـ توينبى ـ مبتدع المنهاج التاريخى الحديث ـ

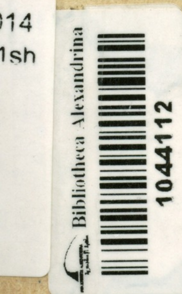
١٩ ـ غاندى ـ قديس السياسة • سلسلة قادة الفكر

٢٠ ـ الفكر السياسى (فى أربعة أجزاء) •

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٣٤



مطابع الهيئة المصرية العـ

الثمن ٢٠ قرشاً